مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني، ص81– ص109 يونيو 2014
ISSN 1726-6807 http://www.iugaza.edu.ps/ar/periodical/

جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ الزَّمْكَانِيِّ فِي ديوانِ "لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيْدًا"

لِمَحْمُود درْوِيش

د. نسيم بَنِي عودة

جامعة الخليل– فلسطين

مُلَخَّص: تَوَقَّفُ الدِّرَاسَةُ عِنْدَ جَمَالِيَّاتِ التَّشْكِيلِ الزَّمْكَانِيِّ فِي ديوانِ " لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا" لمَحْمُود دَرْوِيش، وَاخْتَصَّتْ الدِّرَاسَةُ بِالْجَانِبِ النَّقْدِيِّ الْجَمَالِيِّ ؛إِذْ تَسْعَى إِلى الْكَشْفِ عَنْ جَمَالِيَّاتِ هَذَا التَّشْكِيلِ فِي النَّسِيجِ النَّصِّيِّ الشِّعْرِيِّ ، وَلِكَوْنِ دَرْوِيش مِنْ بَيْنِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ فَقَدُوا الْمَكَانَ /الْوَطَن، فَهُوَ يُشَكِّلُ تَجْرِبَةً شِعْرِيَّةً فَرِيدَةً تَسْتَحِقُّ الدِّرَاسَةَ . وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ إِحْسَاسَ الإِنْسَانِ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَزْدَادُ تَجَذُّرًا وَعُمْقًا فِي الذَّاتِ كُلَّمَا تَعَرَّضَا لِلضَّيَاعِ أَوِ الْفُقْدَانِ، فَتَنْشَطُ الْمُخَيِّلَةُ الشِّعْرِيَّةُ فِي وَصْفِهِمَا.وَإِدْرَاكُنَا لَهُمَا يَبْدَأُ مُنْذُ لَحْظَةِ الْوِلاَدَةِ، وَاهْتِمَامُ الإِنْسَانِ بِهِمَا كَانَ مُنْذُ الْقِدَمِ، فَمَا عِلْمُ التَّنْجِيمِ وَالفلكِ وَالْحِسَابِ، وَالْمُقَدِّمَاتُ الطَّلَلِيَّةُ وَالرِّحْلَةُ عَبْرَ الصَّحْرَاءِ، وَرِحْلَةُ الصَّعَالِيكِ، وَرِحْلَةُ الْمُتَنَبِّي، إِلاَّ نَوْعٌ مِنْ هَذَا الاهْتِمَامِ بِالزَّمَكَانِ.

فَالدِّرَاسَاتُ النَّقْدِيَّةُ اهْتَمَّتْ بِدِرَاسَةِ (الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ) بَعْدَمَا أَثْبَتَتْ نَظَرِيَّةُ الْمَكَانِ أَنَّ الزَّمَانَ يُعَدُّ بُعْدًا رَابِعًا لَهُ، فيظْهرُ فِي الأَدَبِ تبعًا لِرُؤْيَةِ الأَدِيبِ وَتَعَامُلِهِ مَعَهُمَا، وَدَرْوِيش مِنْ بَيْنِ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ فَقَدُوا زَمْكَانَهُمْ ، فَتَحَوَّلَ إِلَى وَعْيٍ دَاخِلِيٍّ ؛إِذْ تَجَاوَزَ دَرْوِيش حُدُودَهُمَا الْوَاقِعِيَّة، فَالْخَيَالُ يُلْغِي مَوْضُوعِيَّةَ الظَّاهِرَةِ الزَّمْكَانِيَّة، وَيُمَثِّلُ دِيوَانَ (لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا 1995م) غَضَبًا وُجُودِيًّا ، وَتَحَوُّلاً جَذْرِيًّا فِي فَلْسَفَتِهِ الشِّعْرِيَّة، وَ ثَوْرَةً لُغَوِيَّةً فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ، فَتَجَلَّتْ شَاعِرِيَّةُ الأَمْكِنَةِ وَالأَزْمِنَةِ فِي هَذَا الدِّيوَانِ عَبْرَ ثَلاَثَةِ مَحَاوِرَ: الأَوَّل: جَمَالِيَّاتُ الزَّمْكَانِ الطُّفُولِيّ الَّذِي عَادَ إِلَيْهِ بَعْدَمَا شَعَرَ بِالْيَأْسِ وَالإِحْبَاطِ وَالْفُتُورِ بِفُقْدَانِ الزَّمْكَانِ نَهَائِيًّا، وَالثَّانِي: جَمَالِيَّاتُ الزَّمْكَانِ الْغَائِبِ الْحَاضِرِ بَعْدَمَا ابْتَعَدَتْ كُلُّ الأَمْكِنَةِ وَالأَزْمِنَةِ عَنْ نَاظِرَيْهِ وَتَحَوَّلَتْ إِلَى رُؤْيَا، وَالثَّالِث: سيميائية الزَّمْكَانِ التَّارِيخِيِّ بِوَصْفِهِ مُعَادِلاً مَوْضُوعِيًّا لِوَاقِعِنَا الْعَرَبِيِّ الْمُتَرَدِّي.

The Aesthetics of Time & Location Composition in deuan"Limatha Tarakt al-Hisan Wahidan"by **Mahmoud Darwish**

Abstract: The present study stops at the aesthetics of time & location composition in deuan "Limatha Tarakt al-Hisan Wahidan" (***Why did you leave the horse alone***) by ***Mahmoud Darwish.***

The study focused on the critical aesthetic aspect of the divan as the study seeks to reveal the aesthetic of this composition within the poetic textual fabric. Since he is among the poets who lost their location / homeland, Darwish constitutes a unique poetic experience that deserves to be studied and explored.

We know that humans' feeling of time and location is increasingly deeply-rooted in one's self whenever we face loss, therefore, the poetic imagination starts to be active in the process of describing them. Our realization of

location and time starts at the moment of birth and humans were interested in both of them since the old times.
The sciences of astrology, astronomy, mathematics, al-Atlal prolegomena, journey through the desert, al-Sa'alik (*Tramps*) journey, and al-Mutanabi journey are all examples of caring about location and time.
The critical studies were concerned about studying (*time and Location*) when the theory of location proved that time is its fourth dimension, then it appears in the literature in accordance with the author's vision.
Darwish was among those poets who lost their location and time that transferred to an inner conscious, and Darwish has exceeded their realistic limits since imaginations deletes the reality of location and time phenomenon. Mahmoud Darwish's divan (*Why did you leave the horse alone, 1995*) represents an existence and philosophical anger, and a radical change in his poetic philosophy, and a linguistic revolution combining the paradoxes.
The poetics of time and location in this divan (*Why did you leave the horse alone*) was represented through three axis: **the first** is about the aesthetics of childish time and location that returned to us after our feeling of depression, apathy, and despair of losing time and location forever, **the second** includes the aesthetic of present and absent time and location after all locations and times have gone far away from his eyes and became visions, **the third** tackles the semiotics of historical time and location as an equal topic to our deteriorating Arab reality.

المقدمة:

إِنَّ إِحْسَاسَ الإِنْسَانِ بِالْمَكَانِ إِحْسَاسٌ فِطْرِيٌّ أَصِيلٌ، وَيَزْدَادُ هَذَا الإِحْسَاسُ تَجَذُّرًا كُلَّمَا تَعَرَّضَ الْمَكَانُ لِلضَّيَاعِ أَوِ السَّلْبِ، فَتَنْشَطُ الْمُخَيِّلَةُ الشِّعْرِيَّةُ فِي وَصْفِهِ، وَتَتَجَلَّى أَبْعَادُهُ فِي صُوَرٍ شَتَّى، فَهِيَ الرَّحِمُ الثَّانِيَةُ لِلإِنْسَانِ بَعْدَ الرَّحِمِ الأُولَى ، إِذْ نَرْتَبِطُ مَعَهُ بِرِبَاطٍ رَحِمِيٍّ ، فَكَمَا يَعِيشُ الإِنْسَانُ فِي الْمَكَانِ فَكَذَلِكَ يَعِيشُ فِي الزَّمَانِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا(الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ) لاَ يَنْفَصِلاَنِ ، وَإِنَّمَا يُشَكِّلاَنِ وَحْدَةً وَاحِدَةً، فَهُمَا كَوَجْهَي الْعُمْلَةِ الْوَاحِدَةِ، وَإِدْرَاكُ الإِنْسَانِ لَهُمَا يَبْدَأُ مُنْذُ اللَّحْظَةِ الأُولَى لِلْوِلاَدَةِ.

وَالشِّعْرُ مِنَ الْفُنُونِ الَّتِي رَافَقَت الْمَسِيرَةَ الإِنْسَانِيَّةَ فِي تَطَوُّرِهَا ، فَكَانَ سِجِلاًّ لِكُلِّ الأَحْدَاثِ الإِنْسَانِيَّةِ ، وَلاَسِيَّمَا عِنْدَ الْعَرَبِ ، فَعُدَّ الشِّعْرُ دِيوَانَ الْعَرَبِ ؛إِذْ سَجَّلَ أَيَّامَهُمْ وَوَقَائِعَهُمْ وَأَمَاكِنَهُمْ ... وَتُعَدُّ الْمُقَدِّمَاتُ الطَّلَلِيَّةُ وَالرِّحْلَةُ عَبْرَ الصَّحْرَاءِ زَمْكَانِيَّةً بِكُلِّ أَبْعَادِهَا ، وَالشِّعْرُ الْجَاهِلِيُّ قَدْ أَرَّخَ لِذَاتِهِ بِوَلَعِهِ بِالزَّمَانِ أَوَّلاً ، وَبِالْمَكَانِ ثَانِيًا ، وَبِتَسْمِيَةِ الْمَكَانِ وَتَأْطِيرِهِ وَتَحْدِيدِهِ وَتَجْسِيمِهِ ، وَبَعْثِهِ إِلَى حَيَاةٍ مُتَجَدِّدَةٍ ، وَبِاكْتِنَاهِ الزَّمَانِ فِي حَرَكَةِ تَغَيُّرٍ وَتَنَاوُسٍ فَاعِلِيَّتِهِ بَيْنَ الْوِلاَدَةِ وَالْمَوْتِ ، وَالْخِصْبِ وَالْجَفَافِ ، وَبِدُخُولِ الإِنْسَانِ فِي هَذِهِ الْفَعَالِيَّةِ ... ثُمَّ تَجَسُّدِ الزَّمَانِ تَجَسُّدًا بَاهِرًا فِي الْمَكَانِ بِالدَّرَجَةِ الأُولَى ، وَفِي الأَطْلاَلِ وَتَحْوِيلِهَا إِلَى تَجْرِبَةٍ جَذْرِيَّةٍ تَوَلُّدِيَّةٍ فِي الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ.[1]

وَيَتَشَكَّلُ الْمَكَانُ فِي الشِّعْرِ عَبْرَ اللُّغَةِ الَّتِي تَمْتَلِكُ بِدَوْرِها طَبِيعَةً دِلاَلِيَّةً مُزْدَوَجَةً ، فَالْمَكَانُ يَتَشَكَّلُ بِبُعْدِهِ الْفِيزْيَقِيِّ وَبُعْدِهِ الميتَافيزيقي ، فَهُوَ يَعْتَمِدُ عَلَى الْخَيَالِ الَّذِي يَرْسُمُهُ بَعْدَمَا يَتَجَاوَزُ قِشْرَةَ الْوَاقِعِ إِلَى عَالَمٍ مُتَخَيَّلٍ ، لَكِنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ يَبْقَى وَاقِعًا مُحْتَمَلاً ؛ فَالشُّعَرَاءُ فِي الْمَنْفَى يَعِيشُونَ وَطَنًا لُغَوِيًّا يَبْنُونَهُ فِي قصيدَةٍ شِعْرِيَّةٍ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ اللُّغَةَ الشِّعْرِيَّةَ تُعْرَفُ بِوَصْفِهَا انْزِيَاحًا وَخُرُوجًا عَلَى الْوَاقِعِ اللُّغَوِيِّ الْمَأْلُوفِ ، فَالْبِنْيَةُ الزَّمْكَانِيَّةُ لِنَصٍّ مِنَ النُّصُوصِ تُعَدُّ تَحْقِيقًا لأَنْسَاقٍ كَثِيرَةٍ ، فَالزَّمْكَانِيَّةُ بِنْيَةٌ لُغَوِيَّةٌ ثَاوِيَةٌ وَعَمِيقَةٌ فِي الْوِجْدَانِ الْبَشَرِيِّ.[2]

إِنَّ الْوُجُودَ فِي الْمَنْفَى لاَ يَعْنِي الانْقِطَاعَ عَنِ الْوُجُودِ الْفِعْلِيِّ فِي الْوَطَنِ، فَيُصْبِحُ الْوَطَنُ وَعْيًا دَاخِلِيًّا يَتَمَدَّدُ فِي خَيَالِ الشَّاعِرِ وَذِهْنِهِ ، وَهَذَا الانْقِطَاعُ يَدْفَعُ إِلَى تَنْشِيطِ الْمُخَيِّلَةِ الشِّعْرِيَّةِ إِلَى خَلْقِ فَضَاءٍ نَصِّيٍّ يَصْهَرُ فِي دَاخِلِهِ أَبْعَادًا زَمْكَانِيَّةً مُتَعَدِّدَةً ، لَكِنَّهَا تُشَكِّلُ فِي النِّهَايَةِ بِنَاءً لُغَوِيًّا بَدِيلاً عَنِ الانْقِطَاعِ ، وَيُصْبِحُ الْخَيَالُ الْجِسْرَ الْوَاصِلَ بَيْنَ الأَبْعَادِ الزَّمْكَانِيَّةِ ، فَتَظَلُّ الأَبْعَادُ الزَّمْكَانِيَّةُ لِلْوَطَنِ رَاسِخَةً فِي الْوِجْدَانِ الْبَشَرِيِّ ، وَلَكِنَّ مَقْدِرَةَ الشَّاعِرِ الْخَلاَّقَةَ هِيَ الَّتِي تُظْهِرُهُ بِصُوَرٍ إِبْدَاعِيَّةٍ شَتَّى ، رَاسِمَةً تَفَاصِيلَهُ وَأَجْزَاءَهُ.[3] وَعَبْرَ هَذَا التَّشَكُّلِ الْفَنِّيِّ نَشْعُرُ بِأَنَّنَا نَعْرِفُ الزَّمْكَانَ بِتَفَاصِيلِهِ الدَّقِيقَةِ، فَيَبْدُو الزَّمْكَانُ خَزَّانًا حَقِيقِيًّا لِلأَفْكَارِ وَالْمَشَاعِرِ فَنَتَأَثَّرُ بِهِ، وَيُؤَثِّرُ فِينَا ، فَتَنْشَأُ عَلاَقَةٌ تَبَادُلِيَّةٌ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَالْمَكَانِ ؛ أَيْ الارْتِبَاطُ النَّفْسِيُّ مَعَهُ وَ بِهِ.[4]

وَهَذَا يَتَطَابَقُ مَعَ قَوْلِ باشْلاَر: "**نَعْتَقِدُ** أَنَّنَا نَعْرِفُ أَنْفُسَنَا مِنْ خِلاَلِ حَرَكَةِ الزَّمَنِ ، فِي حِينِ أَنَّ كُلَّ مَا نَعْرِفُهُ هُوَ تَتَابُعُ تَثْبِيتَاتٍ فِي أَمَاكِنِ اسْتِقْرَارِ الْكَائِنِ الإِنْسَانِيِّ الَّذِي يَرْفُضُ الذَّوَبَانَ ، وَالَّذِي يَوَدُّ حَتَّى فِي الْمَاضِي حِينَ يَبْدَأُ الْبَحْثَ عَنْ أَحْدَاثٍ سَابِقَةٍ أَنْ يُمْسِكَ بِحَرَكَةِ الزَّمَنِ ، وَأَنَّ الْمَكَانَ فِي مَقْصُورَاتِهِ الْمُغْلَقَةِ الَّتِي لاَ حَصْرَ لَهَا يَحْتَوِي عَلَى الزَّمَنِ مُكَثَّفًا ، وَهَذِهِ هِيَ وَظِيفَةُ الْمَكَانِ"[5] تُجَاهَ الزَّمَنِ.

إِنَّ كُلَّ مَا نَعْرِفُهُ عَنِ الزَّمْكَانِ هُوَ جُزْءٌ لاَ يَتَجَزَّأُ مِمَّا نَعْرِفُهُ عَنِ الشَّخْصِيَّاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ أَوْ تَسْتَقِرُّ فِيهِ ، وَمِنْ هُنَا نَلْمَحُ الأَثَرَ الْمُتَبَادَلَ فِي الْعَلاَقَةِ الْجَدَلِيَّةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الإِنْسَانِ فِي الأَثَرِ الَّذِي يَتْرُكُهُ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى الآخَرِ أَوْ مَا يُعْرَفُ بِـ(أَثَرِ الشَّخْصِيَّةِ فِي الزَّمْكَانِ ، وَكَذَلِكَ أَثَرُ الزَّمْكَانِ فِي الشَّخْصِيَّةِ) . فَالشَّاعِرُ يُحَاوِلُ أَنْ يَخْلُقَ مُعَادِلاً مَوْضُوعِيًّا لِلزَّمْكَانِ الْمَفْقُودِ فِي نَصٍّ لُغَوِيٍّ شِعْرِيٍّ ، وَتُصْبِحُ الْبِنْيَةُ النَّصِّيَّةُ لِلزَّمْكَانِ ، أُنْمُوذَجًا لِلزَّمْكَانِ الْوَاقِعِيِّ فِي التَّرْكِيبِ اللُّغَوِيِّ ، فَالشَّاعِرُ يَمْنَحُهُ "لُغَةَ النَّمْذَجَةِ "[6].

وَقَدْ قَامَ التَّفْكِيرُ الْفَلْسَفِيُّ فِي مَوْضُوعِ الزَّمَنِ عَلَى ثُنَائِيَّاتٍ ضِدِّيَّةٍ مِنْ ثَبَاتٍ وَتَغَيُّرٍ[7] ، وَاسْتِقَامَةٍ وَدَوَرَانٍ وَ نِسْبِيَّةٍ وَ اسْتِقْلاَلٍ مُطْلَقٍ[8]، وَمِثَالِيَّةٍ وَ مَوْضُوعِيَّةٍ وَ اتِّصَالٍ وَانْفِصَالٍ [9]، فَضْلاً عَنِ الزَّمَنِ الْفِيزْيَائِيِّ وَ الطَّبِيعِيِّ وَ الزَّمَنِ النَّفْسِيِّ [10]. وَإِنْ كَانَتِ الْفِيزْيَاءُ الْحَدِيثَةُ قَدْ أَثْبَتَتْ أَنَّ الْمَكَانَ

يُعَدُّ بُعْدًا رَابِعًا لِلزَّمَنِ [11]،أَيْ أَنَّهُمَا لاَ يَنْفَصِلاَنِ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ، وَالإِنْسَانُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يحلّ فِي مَكَانَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ وَ مُنْفَصِلَيْنِ فِي زَمَنٍ وَاحِدٍ.

وَ لاَ يَخْفَى عَلَيْنَا أَنَّ لِلزَّمَانِ مَغْزًى خَاصًّا بِالنِّسْبَةِ لِلإِنْسَانِ؛ وَ ذَلِكَ لأَنَّهُ لاَ يَنْفَصِلُ عَنْ مَفْهُومِ الذَّاتِ ؛إِذْ إِنَّنَا نَعْي نُمُوَّنَا الْعُضْوِيَّ وَ النَّفْسِيَّ فِي الزَّمَانِ، وَ تَحْصُلُ خِبْرَاتُنَا فِيهِ مِنْ خِلاَلِ تَتَابُعِ اللَّحَظَاتِ الزَّمَانِيَّةِ وَ التَّغَيُّرَاتِ الَّتِي تُشَكِّلُ مَسِيرَتَهُ مِنْ خِلاَلِ حَرَكَةِ الشَّخْصِيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَ تَقَلُّبَاتِهَا، فَيَنْعَكِسُ ذَلِكَ الْفِعْلُ الزَّمَانِيُّ عَلَى مُجْمَلِ مُنْجَزَاتِ الإِنْسَانِ؛ لِكَوْنِهِ يَعِيشُ فِي ظِلِّ الزَّمَنِ[12]،وَهُوَ أيضًا يَرْتَبِطُ بِاللَّحْظَةِ الْحَاضِرَةِ الَّتِي نَعِيشُهَا، وَ هِيَ الَّتِي نُمْسِكُ بِهَا فَقَطْ [13]فَالْمَاضِي نَعِيشُهُ عَبْرَ الْخَيَالِ وَ التَّذَكُّرِ، وَالْمُسْتَقْبَلُ نَعِيشُهُ فِي حُلُمٍ وَ رُؤْيَا وَ أَمَل .

وَنَجِدُ الزَّمَنَ فِي التَّجْرِبَةِ الإِبْدَاعِيَّةِ ، يَتَلَوَّنُ بِلَوْنِ الْحَالَةِ الْوِجْدَانِيَّةِ الَّتِي تَسْتَوْلِي عَلَيْنَا مِنْ خِلاَلِ جَدَلِيَّةِ التَّأَلُّفِ أَوِ الْعِدَاءِ مَعَهُ، مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ جَدَلِيَّةٌ_ حَرَكِيَّةُ الزَّمَنِ السَّرِيعِ والْبَطِيءِ[14]، فَالزَّمَنُ هُوَ "مُعْطًى مِنْ مُعْطَيَاتِ الْوِجْدَانِ "[15]؛ ذَلِكَ هُوَ الزَّمَنُ النَّفْسِيُّ مُرْتَبِطًا بِحَالاَتِ الشُّعُورِ، أَيْ مَا يُعْرَفُ بِالزَّمَنِ الدَّاخِلِيِّ ، وَلأَنَّهُ لاَ يَضِيعُ أَبَدًا... وَ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ حَالاَتِ الشُّعُورِ هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ تَأْثِيرَ الزَّمَنِ فِي الْوِجْدَانِ [16] وَ كُلُّ زَمَانٍ حَقِيقِيٍّ هُوَ فِي جَوْهَرِهِ مُتَعَدِّدُ الأَشْكَالِ، وَأَنَّ الْفِعْلَ الْحَقِيقِيَّ لِلزَّمَانِ يَتَطَلَّبُ غِنَى التَّطَابُقِ ... وَ نَعْرِفُ كَيْفَ نَعِيشُ وَفْقًا لإِيقَاعِنَا الذَّاتِيِّ فِي مُخْتَلَفِ اللَّحَظَاتِ الزَّمَانِيَّةِ[17].

يَخْلُقُ الشَّاعِرُ فِي (الْحُلْمِ وَالرُّؤْيَا) وَطَنًا يَعِيشُ فِيهِ ، بَدِيلاً عَنِ الزَّمْكَانِ الْمَفْقُودِ ، وَيَتَجَسَّدُ هَذَا الزَّمْكَانُ بِكُلِّ أَبْعَادِهِ الْفِيزْيَائِيَّةِ وَالْجُغْرَافِيَّةِ وَالْمِيتَافِيزِيقِيَّةِ . فَمَحْمُودُ دَرْوِيش مِنْ بَيْنِ شُعَرَاءِ فِلَسْطِينَ الَّذِينَ فَقَدُوا الْوَطَنَ ، مَكَانَهُمْ وَزَمَانَهُمْ ، فَعَاشَ مُشَرَّدًا فِي اللاَّزَمْكَانِ . فَقَدْ طَوَّعَ دَرْوِيش اللُّغَةَ كَيْفَمَا شَاءَ عَبْرَ انْزِيَاحَتِهِ اللُّغَوِيَّةِ وَالتَّرْكِيبِيَّةِ ، فَقَدْ خَرَقَ الْحَوَاجِزَ اللُّغَوِيَّةَ لِيُبْدِعَ فَضَاءً نَصِّيًّا لُغَوِيًّا، يَأْخُذُنَا إِلَى الْعَالَمِ الْوَاقِعِيِّ لاَ الْمُتَخَيَّلِ ، فَقَدْ مَدَّ جِسْرًا تَوَاصُلِيًّا مَعَ وَطَنِهِ فَتَجَلَّتْ مُخَيِّلَتُهُ الشِّعْرِيَّةُ الْخَلاَّقَةُ فِي إِبْدَاعِ نُصُوصٍ شِعْرِيَّةٍ فِي مَجْمُوعَتِهِ (لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا 1995م). حيث رَسَمَ الْحُدُودَ الْجُغْرَافِيَّةَ وَالزَّمَانِيَّةَ لِوَطَنِهِ الْمَفْقُودِ فِي قَصِيدَةٍ شِعْرِيَّةٍ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ " الْفَنَّ الأَصِيلَ لَيْسَ صِيَاغَةً لِلْحَقَائِقِ " [18]بِقَدْرِ مَا هُوَ خَلْقٌ لِجَمَالِيَّاتِهِ وَإِبْدَاعٌ حَيٌّ وَتَجْسِيدٌ فَاعِلٌ وَتَشْخِيصٌ مَرْئِيٌّ بِالْكَلِمَاتِ لِلْوَاقِعِ الْمَرْئِيِّ وَمُحَاكَاةٌ لَهْ.

لَقَدْ ظَهَرَتْ جَمَالِيَّاتُ الزَّمْكَانِ وَاضِحَةً فِي أَشْعَارِ دَرْوِيش مُنْذُ بِدَايَاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ ، فَهُوَ مَسْكُونٌ بِرُوحِ الزَّمْكَانِ، وَبِرُوحِ الأَرْضِ ، كَمَا عَبَّرَ هُوَ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: " أَنَا لاَ أَكُونُ إِلا فِي الأَرْضِ ، وَكُلُّ وُجُودٍ لِي خَارِجَهَا إِنَّمَا هُوَ ضَيَاعٌ وَتِيهٌ نِهَائِيٌّ ، لِتَكُنِ الأَرْضُ دَاخِلِي تَكْتُبْنِي وَأَكْتُبُهَا " [19] يُشَيِّدُ وَطَنًا مِنَ الشِّعْرِ ، يَرْسُمُ حُدُودَهُ بِأَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَتَرَاكِيبِهِ، فَقَدْ تَجَلَّتْ جَمَالِيات

التَّشكيل الزَّمْكَانيّ وَاضِحَةً فِي أَشْعَارِهِ عَلَى نَحْوٍ عَامٍّ، وَ تُشَكِّلُ مَجْمُوعَةُ (لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا) غَضَبًا وُجُودِيًّا وَفَلْسَفِيًّا وَتَحَوُّلاً فِي جَمَالِيَّاتِهِ الشِّعْرِيَّةِ، وَ خَرْقًا لِلْمَأْلُوفِ، وَكَسْرًا لأُفُقِ التَّوَقُّعِ، وَثَوْرَةً لُغَوِيَّةً، أُنْطِقَ الصَّامِتُ فِيهَا وَصَمَتَ النَّاطِقُ، فَطَالَ غَضَبُهُ وَاقِعَهُ الذَّاتِيَّ وَوَاقِعَ الإِنْسَانِ الْفِلَسْطِينِيِّ الْمُحَاصَرِ وَالْمُشَرَّدِ وَوَاقِعَ الْعَصْرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، عَلَى عَكْسِ مَا كَانَ فِي أَشْعَارِهِ الأُولَى مُنْذُ ديوَانِ (أَوْرَاق الزَّيْتُون1964م حَتَّى ديوَانِ أَعْرَاسِ 1977م) بِخَطَابِيَّتِهِ الْمُبَاشِرَةِ، بَعْدَمَا قَتَلَ هَذَا الْعَصْرُ أَحْلاَمَهُ وَتَطَلُّعَاتِهِ إِلَى وَطَنٍ حُرٍّ يَنْعَمُ فِيهِ بِالسَّعَادَةِ وَالْهَنَاءَةِ ، فَهَذَا الْعَصْرُ قَدْ مَسَخَ أَحْلاَمَنَا وَتَطَلُّعَاتِنَا؛ فَالدِّيوَانُ يُمَثِّلُ حَالَةَ الْغَضَبِ الَّتِي تَعْتَرِينَا، وَبَوْحٌ شِعْرِيٌّ لِدَوَاخِلِنَا، وَهُوَ لِسَانُ حَالِنَا، يَقُولُ مَا نَهْمِسُ بِهِ، وَفَضْحٌ لِمَغَالِيقِ أَنْفُسِنَا.

جماليات الزَّمْكَانِ الطُّفُولِيِّ

لَعَلَّ إِحْسَاسَ دَرْوِيش بِفِقْدَانِ الْمَكَانِ نِهَائِيًّا وَهُوَ يَرَى أُمَّتَهُ وَشَعْبَهُ يُوَقِّعُونَ مُعَاهَدَةَ الصُّلْحِ (أُوسْلُو) ــ وَقَدْ تَمَّتْ ــ مَعَ مُغْتَصِبِ الْمَكَانِ، جَعَلَهُ يَتَأَجَّجُ فِي دَاخِلِهِ ، مِمَّا دَفَعَهُ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى ذِكْرَيَاتِ الْمَكَانِ، وَبَعْدَمَا رَأَى الْوَاقِعَ الْعَرَبِيَّ لَمْ يَشْهَدْ إِلاَّ التَّرَاجُعَاتِ وَالسُّقُوطَ الْمُتَكَرِّرَ ، مِنَ الأَنْدَلُسِ الأُولَى إِلَى أَنْدَلُسِ الْعَصْرِ . فَظَلَّ هَاجِسُ الطُّفُولَةِ بَادِيًا فِي شِعْرِهِ تَعْوِيضًا عَنِ الْعَوْدَةِ النِّهَائِيَّةِ، فَازْدَادَتْ جَذْوَتُهُ تَوَقُّدًا، وَحَلَّتِ الذِّكْرَيَاتُ مَكَانَ الْوَاقِعِ الْمُحْتَمَلِ ،فَذِكْرَيَاتُ الْبَيْتِ هِيَ الْهَاجِسُ الأَوَّلُ لِلإِنْسَانِ، وَبِوَصْفِهِ النُّقْطَةَ الْمَرْكَزِيَّةَ الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا، لِتَلَمُّسِ الْفَضَاءِ الْخَارِجِيِّ الرَّحْبِ، فَتَنْشَأُ الْعَلاَقَةُ الْجَدَلِيَّةُ التَّرَابُطِيَّةُ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَبَيْتِهِ" فَالْبَيْتُ الَّذِي وُلِدْنَا فِيهِ مَحْفُورٌ بِشَكْلٍ مَادِيٍّ فِي دَاخِلِنَا، إِنَّهُ يصْبِحُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْعَادَاتِ الْعُضْوِيَّةِ ... وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ تَجْسِيدٍ لِلْمَأْلُوفِ ، هُوَ تَجْسِيدٌ لِلأَحْلاَمِ " [20]، فَالْبَيْتُ هُوَ عَالَمُنَا حَتَّى وَإِنْ حَلَّ فِيهِ الآخَرُ وَاسْتَبَاحَهُ، كَمَا فِي قَصِيدَةِ "عِنْدَمَا يَبْتَعِدُ":

لِلْعَدُوِّ الَّذِي يَشْرَبُ الشَّايَ فِي كُوخِنَا
فَرَسٌ فِي الدُّخَانِ
...
فِي كُوخِنَا يَسْتَرِيحُ الْعَدُوُّ مِنَ الْبُنْدُقِيّةِ ،
يَتْرُكُهَا فَوْقَ كُرْسِيِّ جَدِّي.وَيَأْكُلُ مِنْ خُبْزِنَا
مِثْلَمَا يَفْعَلُ الضَّيْفُ. يَغْفُو قَلِيلاً عَلَى
مَقْعَدِ الْخَيْزُرَانِ وَيَحْنُو عَلَى فَرْوِ
قِطَّتِنَا ... [21]

يَرْسُمُ دَرْوِيش صُورَةَ الْعَدُوِّ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُؤْلِمُهُ فِرَاقُهُ وَضَيَاعُهُ مِنْهُ ، وَمَا أَصْعَبَ أَنْ تُعِدَّ الشَّايَ لِيَشْرَبَهُ غَيْرُكَ ! عَدُوُّكَ فِي مَكَانِكَ ، فِي كُوخِنَا ، الْمَكَانِ الَّذِي عَاشَ فِيهِ أَيَّامَ الطُّفُولَةِ ، أَصْبَحَ الآنَ فِي أَيْدِي الأَعْدَاءِ دُونَ أَمَلٍ فِي رُجُوعِهِ إِلَيْهِ ، وَيَسْتَرِيحُ عَلَى كُرْسِيِّ جَدِّي ، وَصَاحِبُهُ الأَصْلِيُّ يُكَابِدُ أَلَمَ ضَيَاعِهِ وَفِرَاقِهِ . وَلَعَلَّ دِلاَلَةَ الأَلْفَاظِ تُوحِي بِأَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ اسْتَوْطَنَ الْمَكَانَ وَاطْمَأَنَّ فِيهِ (يَسْتَرِيحُ، وَيَشْرَبُ ،وَكُرْسِيُّ جَدِّي ، وَ يَأْكُلُ خُبْزَنَا ، وَيَغْفُو ، وَيَحْنُو...) عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْبُيُوتَ لاَ تَمُوتُ ، تَبْقَى فِي الذَّاكِرَةِ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ باشلار: "الْبَيْتُ هُوَ رُكْنُنَا فِي الْعَالَمِ ، إِنَّهُ كُوْنُنَا الأَوَّلُ ، كَوْنٌ حَقِيقِيٌّ بِكُلِّ مَا لِلْكَلِمَةِ مِنْ مَعْنًى ، وَإِذَا طَالَعْنَاهُ بِأُلْفَةٍ فَسَيَبْدُو أَبْأَسَ بَيْتٍ جَمِيلاً " [22] فَدَرْوِيش يَنْقُلُ فِي ذَاكِرَتِهِ ذَلِكَ الْعَالَمَ الْمَاضِي وَيَتَذَكَّرُ تَفَاصِيلَهُ فِي أَيَّامِ الطُّفُولَةِ، وَيَسْتَحْضِرُ الأَمَاكِنَ الأُخْرَى الَّتِي عَاشَ فِيهَا، أَمَاكِنَ الْغُرْبَةِ ــ وَلَعَلَّ تَكْرَارَ الأَفْعَالِ الْوَارِدَةِ فِي قَصِيدَةِ (عِنْدَمَا يَبْتَعِدُ) تُشِيرُ إِلَى اِسْتِمْرَارِ الانْقِطَاعِ عَنْهُ ، بَدَلاً مِنْ أَنْ يُعَانِقَهُ فَظَهَرَ الْعِنَاقُ فِي الْخَيَالِ فَقَطْ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ ظَهَرَ الْمَكَانُ بِأَبْعَادِهِ الْجُغْرَافِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَتَعَامَلُ مَعَهَا دَرْوِيش، رَاسِمًا صُورَةً شِعْرِيَّةً تَدُلُّ عَلَى وَاقِعِيَّةِ الْمَكَانِ لاَ الْمُتَخَيَّلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

عِمْ مَسَاءً ! وَسَلِّمْ عَلَى بِئْرِنَا
وَعَلَى جِهَةِ التِّينِ. وَامْشِ الْهُوَيْنَى عَلَى
ظِلِّنَا فِي حُقُولِ الشَّعِيرِ. وَسَلِّمْ عَلَى سَرْوِنَا
فِي الأَعَالِي. وَلاَ تَنْسَ بَوَّابَةَ الْبَيْتِ مَفْتُوحَةً
فِي اللَّيَالِي. وَلاَ تَنْسَ خَوْفَ
الْحِصَانِ مِنَ الطَّائِرَاتِ،
وَسَلِّمْ عَلَيْنَا، هُنَاكَ، إِذَا اتَّسَعَ الْوَقْتُ...[23]

فَقَدْ ظَهَرَتْ تَفَاصِيلُ الْمَكَانِ فِي الْخِطَابِ الْمُوَجَّهِ لِلْعَدُوِّ الَّذِي يُحَاوِلُ سَرِقَةَ الزَّمْكَانِ وَمَا يَتَضَمَّنُهُ ، وَقَدْ سُرِقَ(بِئْرُنَا ، وَالتِّينُ ، وَحُقُولُ الشَّعِيرِ ، وَسَرْوُنَا ، وَبَوَّابَةُ الْبَيْتِ ، وَالْحِصَانُ...) فَمَهْمَا حَاوَلَ الْعَدُوُّ سَرِقَةَ الأَمَاكِنِ، إِلاَّ أَنَّهَا تَظَلُّ تَسْكُنُ فِي ذَوَاتِنَا " فَمِنْ خِلاَلِ أَحْلاَمِ الْيَقَظَةِ تَتَدَاخَلُ مُخْتَلَفُ الْبُيُوتِ الَّتِي سَكَنَّاهَا ، وَنَحْتَفِظُ بِكُنُوزِ الأَيَّامِ السَّالِفَةِ ، وَعِنْدَمَا نَسْكُنُ بَيْتًا جَدِيدًا تَتَوَارَدُ إِلَيْنَا ذِكْرَيَاتُ الْبُيُوتِ الَّتِي عِشْنَا فِيهَا مِنْ قَبْلُ ، فَإِنَّنَا نَنْتَقِلُ إِلَى أَرْضِ الطُّفُولَةِ غَيْرِ الْمُتَحَرِّكَةِ ، غَيْرِ الْمُتَحَرِّكَةِ كَالذِّكْرَيَاتِ الْبَالِغَةِ الْقِدَمْ " [24]، وَكَأَنَّ دَرْوِيشَ يُرِيحُ نَفْسَهُ مِنْ عَنَاءِ ذِكْرَيَاتِ الزَّمْكَانِ ؛ فَهُوَ يُعَايِشُهُ فِي أَحْلاَمِ الْيَقَظَةِ مَرَّةً أُخْرَى ، بَعْدَمَا انْقَطَعَ عَنْهُ الانْقِطَاعَ الْفِعْلِيَّ " إِنَّنَا نُرِيحُ أَنْفُسَنَا مِنْ خِلاَلِ أَنْ نُعَايِشَ مَرَّةً أُخْرَى ذِكْرَيَاتِ الْحِمَايَةِ ... فَالأَمَاكِنُ الَّتِي مَارَسْنَا فِيهَا أَحْلاَمَ الْيَقَظَةِ تُعِيدُ تَكْوِينَ نَفْسِهَا فِي حُلُمِ يَقَظَةٍ جَدِيدَةٍ"[25]، فَتَجَلَّتْ هَذِهِ الْمَلاَمِحُ فِي تَفَاصِيلِ الزَّمْكَانِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى

أُلْفَتِهِ، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ الاسْتِرَاحَةَ الشِّعْرِيَّةَ تَتَبَدَّى مِنْ خِلاَلِ تَشَظِّي الزَّمْكَانِ، بِاسْتِعَادَةِ أَجْزَائِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنَّهُ يَتَرَاسَلُ مَعَهُ عَبْرَ الْحَوَاسِّ:

سَلِّمْ عَلَى بَيْتِنَا يَا غَرِيبْ

فَنَاجِينُ

قَهْوَتِنَا لاَ تَزَالُ عَلَى حَالِهَا . هَلْ تَشُمَّ

أَصَابِعَنَا فَوْقَهَا [26]

وَيعَزِفُ دَرْوِيشُ كَثِيرًا عَلَى لَحْنِ الْحَنِينِ إِلَى أَوَّلِ مَنْزِلٍ ، عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الأَمْكِنَةَ هِيَ نَحْنُ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ تَارِيخِنَا ، بَلْ هِيَ التَّارِيخُ كُلُّهُ، وَكَأَنَّ هَذَا الزَّمَنَ أَصْبَحَ زَمَنَ التُّرَاجُعَاتِ وَالانْكِسَارَاتِ، مِمَّا خَلَقَ عِنْدَ دَرْوِيش رَدَّةَ فِعْلٍ جَعَلَتْهُ يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ مُبَاشَرَةً ، يَرْثِيهِ وَيَرْثِي الإِنْسَانَ فِيهِ، فَضْلاً عَنْ رِثَاءِ رُوحِ الإِنْسَانِ وَقِيَمِهِ:

إِلَى أَيْنَ تَأْخُذُنِي يَا أَبِي ؟

إِلَى جِهَةِ الرِّيحِ يَا وَلَدِي [27]

هَذَا خُرُوجٌ مِنَ الزَّمْكَانِ إِلَى اللاَّزَمْكَانِ، عَبْرَ هَذِهِ الْحَوَارِيَّةِ جَسَّدَ دَرْوِيشُ رِثَاءَ الْمَكَانِ(سُورِ عَكَّا الْقَدِيم)، وَقَدِ اكْتَمَلَتْ هَذِهِ الْحَوَارِيَّةُ بَيْنَ الابْنِ وَالأَبِ فِي صُورَةِ التَّذَكُّرِ وَ التَّدَاعِي الْحُرِّ لِتَفَاصِيلِ الْمَكَانِ مُقْتَرِنًا بِالزَّمَنِ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يُؤَرِّخُ لِلْمَكَانِ، تَذَكُّرِ الأَبِ لِصَلْبِهِ أَيَّامَ الإِنْجِلِيز" عَلَى شَوْكِ صُبَّارَةِ لَيْلَتَيْنِ وَلَمْ يَعْتَرِفْ أَبَدًا"[28]. لَكِنَّ التَّسَاؤُلَ يَتَصَاعَدُ أَكْثَرَ فِي نَفَسِ دَرْوِيش الشِّعْرِيِّ:

لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا ؟

ــ لِكَيْ يُؤْنِسَ الْبَيْتَ، يَا وَلَدِي،

فَالْبُيُوتُ تَمُوتُ إِذَا غَابَ سُكَّانُهَا.[29]

إِنَّ دِلاَلَةَ الْحِصَانِ فِي الْبَيْتِ يُشَكِّلُ الصُّورَةَ الْعَرَبِيَّةَ الأَصِيلَةَ ، بِوَصْفِهِ رَمْزًا لِلأَمْجَادِ ، لَكِنَّ فَاعِلِيَّتَهُ(تَرَكْتَ .. وَحِيدًا) قَدْ أَعْطَتِ الْحِصَانَ صِفَةَ التَّخَلِّي عَنْ وَظِيفَتِهِ الأَسَاسِيَّةِ ؛ لِيُصْبِحَ الْمُؤْنِسَ لَهُ . فَكَيْفَ يَكُونُ حَامِيًا لِلدَّارِ دُونَ الْفَارِسِ ؟ عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ الإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الْمَكَانَ الْحَرَكِيَّةَ وَالْفَاعِلِيَّةَ لاَ الْحِصَان " فَالْمَكَانُ بِلاَ حَرَكَةٍ إِنْسَانِيَّةٍ ، لاَ يَغْدُو مَكَانًا "[30]، فَهَذِهِ الصُّورَةُ لِلْحِصَانِ تَسْتَدْعِي صُورَةً أُخْرَى لَهُ تَتَمَثَّلُ فِي الاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ:

أَسْرَجُوا الْخَيْلَ

لاَ يَعْرِفُونَ لِمَاذَا

وَلَكِنَّهُمْ أَسْرَجُوا الْخَيْلَ فِي السَّهْلِ[31]

وكَأَنَّ الْقِيمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْحِصَانِ قَدْ تَلاَشَتْ (لاَ يَعْرِفُونَ لِمَاذَا)، فَالْعِبَارَةُ تُوحِي بِثُنَائِيَّتِهَا بِأَنَّ إِسْرَاجَ الْخَيْلِ (الحرب و الرَّحيل) فَمِنْ هُنَا تَتَجَلَّى فَاعِلِيَّةُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَاتِ الشِّعْرِيَّةِ (أَسْرِجُوا) وَ تَكْرَارِهَا ثَلاَثَ مَرَّات، فَهِيَ تُوحِي بِحَالَةِ الْقَلَقِ وَ الضَّيَاعِ الَّتِي يَعِيشُهَا الإِنْسَانُ الْفِلَسْطِينِيُّ ، فَالشَّاعِرُ يُحَاوِلُ أَنْ يَرْبِطَ بَيْنَ أَبْعَادِ الْمَكَانِ وَ الزَّمَانِ (الْبَيْت ، وَ الْحِصَان، وَالذَّات)، فَبَقَاءُ الْحِصَانِ فِي الْبَيْتِ يَمْنَحُهُ صِفَةَ الْحَرَكَةِ لاَ السُّكُونِ ، وَصِفَةَ الْحَيَاةِ لاَ الْمَوْتِ (تَمُوتُ) عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ باشلار: " الْبَيْتُ جَسَدٌ وَرُوحٌ ، وَهُوَ عَالَمُ الإِنْسَانِ الأَوَّل "[32]، فَدَرْوِيش يُحَاوِلُ أَنْ يُبْقِي الْخَيْطَ الْوَاصِلَ بَيْنَ الْمُشَرَّدِينَ وَ زَمْكَانِهِمِ الأَصْلِيِّ مُمْتَدًّا مُمَثَّلاً بِالْحِصَانِ، وَيَبْقَى الْحَنِينُ إِلَى الْبَيْتِ حَنِينًا جَارِفًا ، فَيَرْسُمُ دَرْوِيشُ لَهُ لَحْظَةً جَمَالِيَّةً وَشِعْرِيَّةً:

هَلْ تَعْرِفُ الْبَيْتَ، يَا وَلَدِي؟
مِثْلَمَا أَعْرِفُ الدَّرْبَ أَعْرِفُهُ:
يَاسَمِينٌ يُطَوِّقُ بَوَّابَةً مِنْ حَدِيدِ
وَدَعْسَاتُ ضَوْءٍ عَلَى الدَّرَجِ الْحَجَرِيِّ
وَعُبَّادُ شَمْسٍ يُحَدِّقُ فِي مَا وَرَاءَ الْمَكَانِ
وَنَحْلٌ أَلِيفٌ يُعِدُّ الْفُطُورَ لِجَدِّي
عَلَى طَبَقِ الْخَيْزُرَانِ،
وَبَاحَةُ الْبَيْتِ بِئْرٌ وَصَفْصَافَةٌ وَحِصَانْ
وَخَلْفَ السِّيَاجِ غَدٌ يَتَصَفَّحُ أَوْرَاقَنَا...[33]

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ طُولِ الْمَسَافَةِ وَبُعْدِهَا عَنِ الزَّمْكَانِ الأَصْلِيِّ ، جَرَّاءَ فِعْلِ الانْقِطَاعِ؛ إِلاَّ أَنَّ الشَّاعِرَ يَعْرِفُ مَكَانَهُ وَزَمَانَهُ ، ذَاكِرًا تَفَاصِيلَهُ الدَّقِيقَةَ وَالصَّغِيرَةَ " حِينَ نَحْلُمُ بِالْبَيْتِ الَّذِي وُلِدْنَا فِيهِ، وَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي أَعْمَاقِ الاسْتِرْخَاءِ الْقُصْوَى ، نَنْخَرِطُ فِي ذَلِكَ الدِّفْءِ الأَصْلِيِّ، فِي تِلْكَ الْمَادَّةِ لِفِرْدَوْسِنَا الْمَادِّيِّ "[34]، وَلَعَلَّ السَّرْدَ الْوَصْفِيَّ يُوحِي بِتَآلُفِ الإِنْسَانِ مَعَ زَمْكَانِهِ الخَاصِّ(يَاسَمِين يُطَوِّقُ بَوَّابَةً، وَالدَّرَجُ الْحَجَرِيُّ، وَبِئْرٌ، وَصَفْصَافَةٌ، وَحِصَانٌ) لَكِنَّهَا كُلَّهَا (خَلْفَ السِّيَاجِ) الْبَعِيدِ، وَهَذَا هُوَ الانْقِطَاعُ الْفِعْلِيُّ عَنِ الْجَذْرِ الأَصْلِيِّ الَّذِي يَنْتَمِي إِلَيْهِ الإِنْسَانُ بِجَوَارِحِهِ وَلاَ سِيَّمَا بَيْتُهُ – وَطَنُهُ –" فَبَيْتُ الإِنْسَانِ امْتِدَادٌ لَهُ، فَإِذَا وَصَفْتَ الْبَيْتَ ، فَقَدْ وَصَفْتَ الإِنْسَانَ"[35] ،فَأَنَا الْمَكَانُ وَالْمَكَانُ أَنَا.

فَدَرْوِيشُ يَسْتَرْجِعُ ذِكْرَيَاتِ بَيْتِ الطُّفُولَةِ الَّذِي فَقَدَهُ ، وَاصِفًا إِيَّاهُ بِأَنَّهُ فِرْدَوْسٌ أَرْضِيٌّ، عَالَمُهُ الْخَاصُّ، فَقَدْ تَعَانَقَ الْمَكَانُ مَعَ الزَّمَانِ ، وَتَمَثَّلَ الزَّمَنُ فِي حَرَكِيَّةِ الأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى اسْتِمْرَارِيَّةِ الْحَدَثِ الزَّمَنِيِّ وَعَدَمِ انْقِطَاعِهِ مِنْ عَالَمِ الاتِّصَالِ الْخَيَالِيِّ (تَعْرِفُ ، وَأَعْرِفُ ، وَأَعْرِفُهُ

، وَيُطَوِّقُ، وَيُحَدِّقُ ، وَيَعِدُ ، وَيَتَّصَفَّحُ...) ، فَضْلاً عَنْ (غَدٍ) الَّذِي يَحْلُمُ بِهِ (خَلْفَ السِّيَاجِ) .

وَحَرِيٌّ بِمَنْ فَقَدَ زَمْكَانَهُ بِأَبْعَادِهِ الْفِيزِيقِيَّةِ وَ السِّيكولُوجِيَّةِ ، أَنْ يُمْسِكَ بِلَحْظَتِهِ الْحَاضِرَةِ، فَوَقَفَ دَرْوِيش عَلَى أَطْلاَلِ طُفُولَتِهِ الَّتِي تَرْحَلُ مَعَهُ ، ذَلِكَ الزَّمَنُ الْمَاضِي الَّذِي أَفْلَتَ مِنْهُ، فَاسْتَرْجَعَهُ فِي حُلُمِ الْيَقَظَةِ، بَعْدَمَا شَعَرَ بِأَنَّ الْمَاضِي يَمُرُّ مَرَّ الْقِطَارِ:

...أَعْبُرُ

بَيْنَ الْعُصُورِ كَأَنِّي أَعْبُرُ بَيْنَ الْغُرَفْ (36)

إِنَّ دَرْوِيشَ/أو الإِنْسَانَ لاَ يَعِيشُ فِي الْمَكَانِ بِقَدْرِ مَا يَعِيشُ فِي الزَّمَانِ، فَتَجَلَّتْ جَمَالِيَّاتُ الْمَكَانِ الطُّفُولِيِّ عَبْرَ التَّدَاعِي الْحُرِّ لِتَفَاصِيلِهِ (الْبَيْت ، وَالْبِئْر، وَ السِّيَاجْ ، وَ الزَّيْتُون، وَ سَاحَةُ الدَّار...)، فَضْلاً عَنِ الْعَلاَقَةِ التَّرَابُطِيَّةِ بَيْنَ أَبْعَادِ السِّيَاقِ النَّصِّيِّ ، وَ حَرَكِيَّةِ الأَفْعَالِ الَّتِي تُوحِي بِمَدَى هَذَا التَّوَاصُلِ النَّفْسِيِّ مَعَهُ ، عَلَى الرُّغْمِ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ (الْمَاضِي الاتِّصَال الْحَقِيقِيّ مَعَ الْمَكَانِ ، وَالْحَاضِرِ الاتِّصَال النَّفْسِيّ مَعَه)، فَأَسْقَطَ دَرْوِيشُ هُمُومَهُ وَ آلاَمَهُ عَلَى تَجَارِبِ الآخَرِينَ، فَوَجَدَ فِي قِصَّةِ هَاجَرَ وَ إِسْمَاعِيل ـــــــــ عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ ـــــــــــ تَجْرِبَةً جَاهِزَةً مَاثَلَتْ تَجْرِبَتَهُ :

...هَلْ تَتَذَكَّرِينَ

طَرِيقَ هِجْرَتِنَا إِلَى لُبْنَانَ ، حَيْثُ نَسِيتِنِي

وَ نَسِيتُ كِيسَ الْخَبَرِ[كَانَ الْخَبَرُ قَمْحِيًّا]

وَلَمْ أَصْرُخْ لِئَلاَّ أُوقِظَ الْحُرَّاسْ (37)

فَتَجَلَّتْ شَاعِرِيَّةُ هَذَا الْمَكَانِ عَبْرَ الْخِطَابِ الْحِوَارِيِّ بَيْنَ الابْنِ وَ الأُمِّ بِبُعْدَيْهِ (الْمَاضِي _ قِصَّة هَاجَر، وَالْحَاضِرِ _قِصَّة دَرْوِيش/الدَّرَاوِيش)، فَالشَّاعِرُ عَمَدَ إِلَى تَفَاصِيلِ الْمَكَانِ ، حَتَّى وَ إِنْ كَانَتْ مُتَنَاهِيَةً فِي الصِّغَرِ، إِلاَّ أَنَّهَا تُؤَدِّي دَوْرًا فَاعِلاً فِي حَرَكِيَّةِ النَّصِّ الدَّلاَلِيَّةِ، فَتُوحِي بِوَاقِعِيَّتِهِ، وَكَأَنَّ دَرْوِيشَ يُؤَرِّخُ لِتَارِيخِ هِجْرَتِهِ إِلَى لُبْنَانَ (1948م) عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ، وَبِلِسَانِ التَّجْرِبَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ عَلَى نَحْوٍ عَامٍّ، فَمِنْ هُنَا تَكْمُنُ فَاعِلِيَّةُ الدَّوَالِّ الشِّعْرِيَّةِ فِي التَّشْكِيلِ النَّصِّيِّ، ذَلِكَ أَنَّ " الأَلْفَاظَ الْمُفْرَدَةَ الَّتِي هِيَ أَوْضَاعُ اللُّغَةِ لَمْ تُوضَعْ لِتُعْرَفَ مَعَانِيهَا فِي أَنْفُسِهَا؛ وَلَكِنْ لأَنْ يَضُمَّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْض ، فَيُعْرَفُ فِيمَا بَيْنَهَا مِنْ فَوَائِدَ "(38) .

وَالْمُتَأَمِّلُ لِقَصَائِدِ دَرْوِيش فِي أَعْمَالِهِ السَّابِقَةِ ، يَجِدُ الطَّابَعَ الْخَطَابِيَّ الْمُبَاشَرَ ، مُنْذُ دِيوَانِهِ الأَوَّلِ (أَوْرَاق الزَّيْتُون1964م حَتَّى دِيوَانِ أَعْرَاس 1977م) ، وَنَجِدُهُ فِي أَعْمَالِهِ الشِّعْرِيَّةِ مُنْذُ دِيوَانِهِ(مَدِيح الظِّلِّ العَالِي 1982 حَتَّى دِيوَانِ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا 1992م) قَدِ انْتَقَلَ بِالقَصِيدَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْبَسَاطَةِ إِلَى التَّعْقِيدِ، وَمِنَ الْغِنَائِيَّةِ إِلَى الدِّرَامِيَّةِ، وَمِنَ الصُّوَرِ الشِّعْرِيَّةِ الْبَسِيطَةِ إِلَى الصُّورَةِ

الْمُرَكَّبَةِ وَالْكُلِّيَّةِ، وَلَكِنَّهُ فِي دِيوَانِهِ (لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا 1995م) ، قَدْ تَحَوَّلَ إِلَى الطَّابَعِ التَّأَمُّلِيِّ وَالْجَدَلِيِّ وَالْفَلْسَفِيِّ الَّذِي يَحْضُرُ فِي الذَّاكِرَةِ ، وَيُحَاوِلُ اسْتِعَادَةَ تَفْصِيلَاتِ الْمَاضِي بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ مِنْ تَجَلِّيَاتٍ شِعْرِيَّةٍ وَفِكْرِيَّةٍ وَجَمَالِيَّةٍ . فَرَمْكَانُهُ قَدْ رُبِطَ عَلَى الصَّعِيدِ الذَّاتِيِّ بِالطُّفُولَةِ ، وَيَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَى أَزْمِنَةٍ أُخرَى:

لَمْ أَكُنْ بَعْدُ أَعْرِفُ عَادَاتِ أُمِّي ، وَلاَ أَهْلِهَا
عِنْدَمَا جَاءَتْ الشَّاحِنَاتُ مِنَ الْبَحْرِ، لَكِنَّنِي
كُنْتُ أَعْرِفُ رَائِحَةَ التِّبْغِ حَوْلَ عَبَاءَةِ جَدِّي
وَرَائِحَةَ الْقَهْوَةِ الأَبَدِيَّةِ ، مُنْذُ وُلِدْتُ
كَمَا يُولَدُ الْحَيَوَانُ الأَلِيفُ هُنَا
دُفْعَةً وَاحِدَةً ! (39)

وَكَأَنَّ دَرْوِيشَ يُؤَرِّخُ لِلزَّمْكَانِ (عِنْدَمَا جَاءَتْ الشَّاحِنَاتُ مِنَ الْبَحْرِ) بَدْءًا بِطُفُولَتِهِ عَامَ1948م ، عِنْدَمَا كَانَ صَغِيرًا حِينَمَا دَخَلَ الْغُرَبَاءُ مِنَ الْبَحْرِ ، وَالشَّاحِنَاتُ تَحْمِلُ الْقَادِمِينَ الْجُدُدَ إِلَى مَكَانِهِ الْخَاصِّ ، وَتُغَيِّرُ مَعَالِمَ هَذَا الْمَكَانِ(لَمْ أَكُنْ بَعْدُ أَعْرِفُ عَادَاتِ أُمِّي وَلاَ أَهْلِهَا) ، وَلَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ قَدِ اقْتَصَرَتْ عَلَى (رَائِحَةِ التِّبْغِ ، وَرَائِحَةِ الْقَهْوَةِ). وَإِذَا كَانَ الْبَحْرُ يَحْمِلُ الدِّلَالَةَ الضِّدِّيَّةَ فِي الذَّاكِرَةِ الدَّرْوِيشِيَّةِ ، بِوَصْفِهِ بِوَّابَةَ الْقَادِمِينَ الْجُدُدِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قَدْ شَكَّلَ ثُنَائِيَّةً دِلَالِيَّةً مَا بَيْنَ الْقَادِمِ /الْغُزَاةِ ، وَمَا بَيْنَ الْمُغَادِرِ/الْفِلَسْطِينِيِّ الْمُشَرَّدِ ، حِينَمَا اقْتَرَنَتْ لَفْظَةُ (الْبَحْرِ) بِلَفْظَةِ (الشَّاحِنَاتِ) وَتَكْرَارِهَا أَرْبَعَ مَرَّاتٍ فِي قَصِيدَةِ (قُرَوِيُّونَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ):

نَحْنُ أَيْضًا صَعَدْنَا إِلَى الشَّاحِنَاتِ ، يُسَامِرُنَا
لَمَعَانُ الزُمُرُّدِ فِي لَيْلِ زَيْتُونِنَا ، وَنُبَاحُ
كلاب عَلَى قَمَرٍ عَابِرٍ فَوْقَ بُرْجِ الْكَنِيسَةِ ،
لَكِنَّنَا لَمْ نَكُنْ خَائِفِينَ ،لأَنَّ طُفُولَتَنَا لَمْ
تَجِئْ مَعَنَا. وَاكْتَفَيْنَا بِأُغْنِيَّةٍ: سَوْفَ نَرْجِعُ
عَمَّا قَلِيلٍ إِلَى بَيْتِنَا... عِنْدَمَا تُفْرِغُ الشَّاحِنَاتُ
حُمُولَتَهَا الزَّائِدَةَ !.(40)

إِنَّ كُلَّ الْفَعَالِيَّاتِ الَّتِي تَحْدُثُ فِي الْمَكَانِ تَرْتَبِطُ دَائِمًا بِالْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا الإِنْسَانُ، فَإِذَا كَانَ الإِنْسَانُ فِي حَالَةِ تَآلُفٍ مَعَهُ، ظَهَرَ الْمَكَانُ وَاسِعًا وَمَفْتُوحًا، وَظَهَرَتْ أَبْعَادُهُ الَّتِي تُوحِي بِحَرَكِيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا شَعَرَ الإِنْسَانُ تُجَاهَهُ بِالْعَدَائِيَّةِ ظَهَرَ مُغْلَقًا وَمُظْلِمًا؛ فَإِنَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ يَطْغَى عَلَيْهِ السُّكُونُ وَالْمَوْتُ. فَثُنَائِيَّةُ (جَاءَتْ الشَّاحِنَاتُ مِنَ الْبَحْرِ) وَ (صَعِدْنَا الشَّاحِنَاتِ، وَتُفَرِّغُ

الشَّاحِنَاتُ حُمُولَتَهَا الزَّائِدَةَ) تُوحِي لَنَا بِثُنَائِيَّةِ "الدَّاخِل وَالْخَارِج" [41] . فَالدَّاخِلُ فِي الْمَاضِي هُمُ الأَعْدَاءُ، وَالْخَارِجُ هُمْ أَصْحَابُ الزَّمْكَانِ، وَهَذَا مَا قَصَدْنَاهُ بِخُرُوجِ دَرْوِيش مِنَ الزَّمْكَانِ، إِلَى اللاَّزَمْكَانِ (سَوْفَ نَرْجِعُ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَى بَيْتِنَا) الَّذِي فَقَدْنَاهُ، وَ(اكْتَفَيْنَا بِأُغْنِيَةٍ) فَهُوَ الْهَاجِسُ الَّذِي يَرْحَلُ مَعَنَا سَيْكولوجيًّا و فِيزْيَائِيًّا " فَالْبَيْتُ الَّذِي وُلِدْنَا فِيهِ أَكْثَرُ مِنْ مُجَرَّدِ تَجْسِيدٍ لِلْمَأْوَى" [42] ، فدرويش يَرْسُمُ فَضَاءً مَفْتُوحًا لِلْمَكَانِ الْفَنِّيِّ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ يُورِي لوتمان: " الْمَكَانُ الْفَنِّيُّ مِنْ صِفَاتِهِ أَنَّهُ مُتَنَاهٍ، غَيْرَ أَنَّهُ يُحَاكِي مَوْضُوعًا لاَ مُتَنَاهِيًا هُوَ الْعَالَمُ الْخَارِجِيُّ، الَّذِي يَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ "[43] إِلَى فَضَاءٍ دِلاَلِيٍّ رَحْبٍ.

جَمَالِيَّاتُ الزَّمْكَانِ الْغَائِبِ الْحَاضِرِ

يُوَظِّفُ دَرْوِيشُ فِي مَجْمُوعَتِهِ(لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا) أَزْمِنَةً وَأَمْكِنَةً مُخْتَلِفَةً مَا بَيْنَ التَّارِيخِيِّ وَالأُسْطُورِيِّ وَ الدِّينِيِّ وَالْوَاقِعِيِّ والْمُتَخَيَّلِ وَالنَّفْسِيِّ... وَتَرْتَبِطُ كُلُّهَا بِالْبُعْدِ النَّفْسِيِّ، وَاسْتِحْضَارِ هَذِهِ الأَمْكِنَةِ يَأْتِي فِي ظِلِّ التَّعْبِيرِ عَنِ الْوَاقِعِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ، فَضْلاً عَنِ الْفَنِّيِّ، عَبْرَ جَدَلِيَّةِ الْحُضُورِ وَالْغِيَابِ، إِمَّا بِاسْتِحْضَارِ الْغَائِبِ كُلِّهِ أَوْ تَغَيُّبِ بَعْضِهَا الآخَرِ.

إِنَّ جَدَلِيَّةَ الْحُضُورِ وَالْغِيَابِ تَعْكِسُ جَدَلِيَّةَ الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ وَالْوَاقِعِ الْفَنِّيِّ وَالْعَلاَقَةَ الْقَائِمَةَ بَيْنَهُمَا،فَدَرْوِيشُ حَاوَلَ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ التَّخَلُّصَ منْ شَفَافِيَّةِ الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ إِلَى تَجْرِبَةِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ الْحَدَاثِيِّ الأَعْمَقِ رُؤْيَةً وَالأَكْثَرِ تَرْكِيزًا عَلَى التِّقْنِيَّاتِ اللُّغَوِيَّةِ الشِّعْرِيَّةِ، الَّتِي تَحْمِلُ فِي دَاخِلِهَا طَاقَةً دِلاَلِيَّةً وَإِشَارِيَّةً وَرَمْزِيَّةً تُضْفِي عَلَى النَّصِّ الشِّعْرِيِّ بِنَاءً فَنِّيًّا يَحْمِلُ تَعَدُّدًا دِلاَلِيًّا. هَذَا مَا يُمَيِّزُ هَذِهِ الْمَجْمَوعَةَ الشَّعْرِيَّةَ عَنِ الْمَجْمُوعَاتِ الشِّعْرِيَّةِ السَّابِقَةِ ؛إِذْ نَحَا فِيهَا مَنْحًى أُسْلُوبِيًّا وَدِلاَلِيًّا عَمِيقًا، عَبْرَ تِقْنِيَّةِ النَّصِّ التَّكْوِينِيِّ .

إِنَّ اللُّغَةَ تَحْمِلُ فِي حَدِّ ذَاتِهَا طَاقَةً دِلاَلِيَّةً وَإِيحَائِيَّةً، فَالشَّاعِرُ يُحَمِّلُ الأَلْفَاظَ دِلاَلاَتٍ عَمِيقَةً، وَعَلَى حَدِّ قَوْلِ الْجرجَانِيِّ: " إِنَّ الأَلْفَاظَ لاَ تُرَادُ لِذَاتِهَا وَإِنَّمَا لِتُجْعَلَ أَدِلَّةً عَلَى الْمَعَانِي"[44] فَدَرْوِيشُ يَبْنِي عَالَمًا شِعْرِيًّا مُتَنَاقِضًا مَا بَيْنَ ظَوَاهِرِ الْكَلِمَاتِ وَمَا بَيْنَ بَوَاطِنِهَا، فَقَدْ تَجَلَّتْ جَدَلِيَّةُ الْغَائِبِ وَالْحَاضِرِ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ بِشَكْلٍ جَلِيٍّ وَاضِحٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

يَا أَبِي، خَفِّفِ الْقَوْلَ عَنِّي !
تَرَكْتُ النَّوَافِذَ مَفْتُوحَةً
لِهَدِيلِ الْحَمَامْ
تَرَكْتُ عَلَى حَافَّةِ الْبِئْرِ وَجْهِي
تَرَكْتُ الْكَلاَمْ

عَلَى حَبْلِهِ فَوْقَ حَبْلِ الْخِزَانَةِ.
يَحْكِي، تَرَكْتُ الظَّلاَمْ... (45)

تَتَجَلَّى فَاعِلِيَّةُ جَدَلِيَّةِ الْحُضُورِ وَالْغِيَابِ، فِي غِيَابِ الأَمْكِنَةِ الَّتِي كَانَ يَأْلَفُهَا الشَّاعِرُ وَكَانَتْ لَهُ، وَغَابَتْ عَنْ نَاظِرَيْهِ ــ بِصُورَةٍ إِجْبَارِيَّةٍ ــ وَتَجَلَّتْ فِي صُورَةِ التَّدَاعِي الْحُرِّ لِذَاكِرَتِهِ فِي الاسْتِرْجَاعِ وَالتَّأَمُّلِ (النَّوَافِذ، وَالْبِئْر، وَهَدِيل الْحَمَام...)، فَضْلاً عَنْ رَمْزِيَّةِ (الأَب) الَّتِي تُمَثِّلُ حَالَةَ الاسْتِرْجَاعِ، فَالأَبُ يُمَثِّلُ إِحَالَةً إِلَى الزَّمَنِ الْمَاضِي، يَشْكُو إِلَيْهِ الشَّاعِرُ مِنْ خِلاَلِ الْحِوَارِ الدِّرَامِيِّ، مَا حَلَّ بِهِ، وَبِأُمَّتِهِ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْمُتَصَدِّعِ، وَالْمَلِيءِ بِالانْكِسَارَاتِ وَالتَّرَاجُعَاتِ، فَدَرْوِيشُ يَشْعُرُ بِالإِحْبَاطِ وَالنُّفُورِ مِنْ وَاقِعِهِ، بَعْدَ رِحْلَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ النِّضَالِ وَالضَّيَاعِ بَحْثًا عَنِ الذَّاتِ الْمُسْتَقِلَّةِ، لَكِنَّهُ اصْطَدَمَ بِنَصْفِهِ الآخَرِ وَهُوَ يُوقِّعُ عَلَى مُعَاهَدَةِ الصُّلْحِ، مِمَّا دَفَعَهُ إِلَى الْعَوْدَةِ إِلَى زَمَكَانِ الطُّفُولَةِ، وَكَأَنَّهُ هُرُوبٌ مِنَ الذَّاتِ إِلَى حَالَةِ اللاَّانْتِمَاءِ، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ حَرَكِيَّةُ الْفِعْلِ (تَرَكْتُ) وَتَكْرَارُهَا سِتَّ مَرَّاتٍ ، تُعَبِّرُ عَنْ حَالَةِ الانْقِطَاعِ وَعَدَمِ التَّوَاصُلِ الْحِسِّيِّ مَعَ الْمَكَانِ، وَكَذَلِكَ تُوحِي(تَرَكْتُ) بِالأَشْيَاءِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي غَابَتْ عَنْهُ، وَغَيَّبَهَا مِنَ النَّصِّ فَقَدْ حَضَرَتْ فِي الرُّؤْيَا فَقَطْ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

هَلْ تَعْرِفُ الدَّرْبَ يَا ابْنِي
نَعَمْ، يَا أَبِي:
شَرْقَ خَرُّوبَةِ الشَّارِعِ الْعَامِّ
دَرْبٌ صَغِيرٌ يَضِيقُ بِصُبَّارِهِ
فِي الْبِدَايَةِ ثُمَّ يَسِيرُ إِلَى الْبِئْرِ
أَوْسَعَ أَوْسَعَ، ثُمَّ يُطِلُّ
عَلَى كَرْمِ عَمِّي "جَمِيل".(46)

فَقَدْ أَظْهَرَ دَرْوِيشُ الْمَعَالِمَ الْبِيئِيَّةَ لِلأَمَاكِنِ الَّتِي حَضَرَتْ فِي رُؤْيَتِهِ(الدَّرْب، وَخَرُّوبَةِ، وَصُبَّارَةِ، وَالْبِئْرِ، وَكَرْمِ عَمِّي جَمِيل...)حيث إِنَّ هَذِهِ الأَلْفَاظَ تُوحِي بِمَدَى الْتِصَاقِ الشَّاعِرِ بِمَكَانِهِ " فَالْمَكَانُ بِالْمَعْنَى الْفِيزْيَقِيِّ أَكْثَرُ الْتِصَاقًا بِحَيَاةِ الْبَشَرِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ خِبْرَةَ الإِنْسَانِ بِالْمَكَانِ وَإِدْرَاكِهِ لَهُ يَخْتَلِفَانِ عَنْ خِبْرَتِهِ وَإِدْرَاكِهِ لِلزَّمَانِ، فَبَيْنَمَا يُدْرِكُ الزَّمَانَ إِدْرَاكًا غَيْرَ مُبَاشِرٍ مِنْ خِلاَلِ فِعْلِهِ فِي الأَشْيَاءِ، فَإِنَّ الْمَكَانَ يُدْرَكُ إِدْرَاكًا حِسِّيًّا مُبَاشِرًا "(47) ، فَالْمَكَانُ هُوَ الشَّرَارَةُ الأُولَى الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا الشَّاعِرُ فِي تَلَمُّسِ أَبْعَادِ فَضَائِهِ الْخَارِجِيِّ، لِلدُّخُولِ إِلَى الْفَضَاءِ النَّصِّيِّ، وَاللُّغَةُ الشِّعْرِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَمْنَحُ الأَلْفَاظَ دِلاَلاَتِهَا مَهْمَا كَانَتْ مُبَاشِرَةً " فَلَيْسَتِ الأَلْفَاظُ فِي بَسَاطَتِهَا أَوْ جَلاَلِهَا هِيَ الْمِحَكُّ ، وَلَكِنَّ الطَّاقَةَ أَوِ الْعَاطِفَةَ أَوِ الْحَرَكَةَ الَّتِي يُسْبِغُهَا الشَّاعِرُ عَلَيْهَا هِيَ الَّتِي تُحَدِّدُ قِيمَتَهَا "(48) ،

فَدَرْوِيشُ عَاشَ فِي هَذَا الْمَكَانِ وَارْتَبَطَ مَعَهُ بِرِبَاطٍ جَذْرِيٍّ، فَهَذَا التَّصْوِيرُ الْفَنِّيُّ لِجَمَالِيَّةِ الْمَكَانِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ الأَمَاكِنِ حَفْرًا فِي ذَاتِ الشَّاعِرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

أَعْرِفُ الْبَيْتَ مِنْ خُصْلَةِ الْمِرْيَمِيَّةِ أُولَى
النَّوَافِذُ تَجْنَحُ نَحْوَ الْفَرَاشَاتِ... زَرْقَاء
حَمْرَاء.. أَعْرِفُ خَطَّ السَّحَابَ وَفِي أَيِّ
بِئْرٍ سَيَنْتَظِرُ الْقَرَوِيَّاتِ فِي الصَّيْفِ أَعْرِفُ
مَاذَا تَقُولُ الْحَمَامَةُ حِينَ تَبِيضُ عَلَى فُوَّهَةِ
الْبُنْدُقِيَّةِ.. أَعْرِفُ مَنْ يَفْتَحُ الْبَابَ لِلْيَاسَمِينَةِ
وَهِيَ تُفَتِّحُ أَحْلاَمَنَا لِضُيُوفِ الْمَسَاءِ..[49]

لَقَدْ تَكَرَّرَ الْفِعْلُ (أَعْرِفُ) فِي غَالِبِيَّةِ قَصَائِدِ الْمَجْمُوعَةِ[50] ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يُصِرُّ عَلَى فِعْلِ الْمَعْرِفَةِ لِهَذَا الزَّمْكَانِ الَّذِي احْتَلَّهُ غَيْرُهُ ، هُوَ يَعْرِفُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْمُحْتَلِّ الَّذِي يُحَاوِلُ أَنْ يُفَتِّشَ وَيَحْفِرَ فِي تُرَابِ هَذَا الْوَطَنِ لِيَجِدَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ عَبَثًا يُحَاوِلُ ، وَيُصِرُّ الشَّاعِرُ عَلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ خِلاَلِ تَكْرَارِ الْمُفْرَدَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى زَمْكَانِهِ الْخَاصِّ ، فَدَرْوِيشُ عَاشَ فِيهِ ، وَتَآلَفَ مَعَهُ، وَأَصْبَحَ هَذَا الْمَكَانُ يُشَكِّلُ جُزْءًا مِنْ وِجْدَانِهِ " إِنَّ الْمَكَانَ الَّذِي يَنْجَذِبُ نَحْوَهُ الْخَيَالُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَبْقَى مَكَانًا لاَ مُبَالِيًا، ذَا أَبْعَادٍ هَنْدَسِيَّةٍ وَحَسْب، فَهُوَ مَكَانٌ قَدْ عَاشَ فِيهِ بَشَرٌ لَيْسَ بِشَكْلٍ مَوْضُوعِيٍّ فَقَطْ بَلْ بِكُلِّ مَا فِي الْخَيَالِ مِنْ تَحَيُّزٍ"[51] ، وَهُنَا تَظْهَرُ الْعَلاَقَةُ الْجَدَلِيَّةُ التَّوَاصُلِيَّةُ مَعَ الْمَكَانِ فِي أَبْهَى صُوَرِهَا الْمُتَجَسِّدِ فِي الْبَيْتِ:

أَعْرِفُ الْبَيْتَ مِنْ خَفَقَانِ الْمَنَادِيلِ.. أَوْلَى
الْحَمَامَاتُ تَبْكِي عَلَى كَتِفَيَّ.. وَتَحْتَ سَمَاءِ
الأَنَاجِيلِ يَرْكُضُ طِفْلٌ بِلاَ سَبَبٍ.. يَرْكُضُ
الْمَاءُ، وَالسَّرْوُ يَرْكُضُ، وَالرِّيحُ تَرْكُضُ فِي
الرِّيحِ.. وَالأَرْضُ تَرْكُضُ فِي نَفْسِهَا....[52]

هَذَا الْبَيْتُ الصَّغِيرُ قَدْ تَجَاوَزَ حُدُودَهُ الْجُغْرَافِيَّةَ إِلَى الأَرْضِ الْكَبِيرَةِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ غِيَابِهِ، إِلاَّ أَنَّ هَذَا الْغِيَابَ وَهَذَا الاسْتِرْجَاعَ جَعَلَ الشَّاعِرَ يَخْلُقُ مِنْهُ صُورَةً شِعْرِيَّةً وَاقِعِيَّةً تَمْزِجُ بَيْنَ الْحُلُمِ وَالذَّاكِرَةِ (أَعْرِفُ الْبَيْتَ)، وَأَنَّ طُولَ هَذَا الْغِيَابِ لَمْ يَجْعَلِ الْمَكَانَ يَنْدَثِرُ، بَلْ تَحَوَّلَ إِلَى أُسْطُورَةِ الْوَاقِعِ، فِي صُورَةٍ جَمَالِيَّةٍ تَنْبَثِقُ مِنْ (الْمَنَادِيلِ، وَالْحَمَامِ، وَالْمَاءِ، وَالسَّرْوِ، وَالطِّفْلِ، وَالأَرْضِ...) فَدَرْوِيشُ يَسْكُنُ الْقَصِيدَةَ وَيُشَيِّدُ وَطَنًا مِنَ الشِّعْرِ، رَاسِمًا حُدُودَهُ بِالْكَلِمَاتِ، وَيَرْسُمُ حُدُودَهُ عَلَى خُطُوطِ الطُّولِ وَالْعَرْضِ فِي الْفَضَاءِ الطِّبَاعِيِّ، فَالْوَطَنُ " **لَيْسَ** جُغْرَافِيًّا فَحَسْب ــ عِنْدَ الَّذِينَ فَقَدُوا

الْوَطَنَ ــ وَإِنَّمَا حَالَةٌ ذِهْنِيَّةٌ وَفِكْرَةٌ يَتَوَصَّلُ الشَّاعِرُ لِإِحْيَائِهَا وَبَثِّ الْحَيَاةِ فِيهَا... وَوَسِيلَتُهُ هِيَ اللُّغَةُ وَحَرَكَتُهُ فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ حَرَكَةٌ تَقُومُ عَلَى التَّدَاعِي"[53] لِمُفْرَدَاتِهِ، كَمَا يَصِفُ دَرْوِيشُ ذَلِكَ بِالْحُلُمِ:

لاَ أَنَا الآنَ إلاَّ هِيَ الآنَ فِيَّ
وَلاَ هِيَ إلاَّ أَنَا فِي هَشَاشَتِهَا. كَمْ أَخَافُ
عَلَى حُلُمِي أَنْ يَرَى حُلُمًا غَيْرَهَا فِي
نِهَايَةِ هَذَا الْغِنَاءِ....[54]

وَكَأَنَّ دَرْوِيشَ يَتَخَوَّفُ مِنَ الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ الَّذِي سَوْفَ يَحِلُّ بِزَمَكَانِهِ، أَنْ يَرَى بَعْدَ هَذَا التَّرْحَالِ وَطَنًا لاَ يَعْرِفُهُ وَلاَ يَعْرِفُ حُدُودَهُ حَتَّى فِي (الْحُلُمِ مِنَ الْحُلُمِ)، وَهَذَا هُوَ الرِّثَاءُ الْفِعْلِيِّ لِلرُّوحِ الإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَشْعُرُ دَرْوِيشُ بِفِقْدَانِهِ حَقًّا الآنَ، وَكَأَنَّ مُعَاهَدَةَ الصُّلْحِ مَعَ الأَعْدَاءِ قَدْ أَصَابَتْهُ بِالْفُتُورِ وَالإِحْبَاطِ، فَتَحَوَّلَ الْهَاجِسُ الشِّعْرِيُّ مِنَ الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ وَالتَّأَمُّلِيِّ، إِلَى الرُّجُوعِ لِلزَّمَنِ الْمَاضِي الَّذِي أَمْسَكَ بِهِ يَرْثِيهِ وَيَبْكِيهِ، وَتَجَسَّدَ هَذَا الإِحْبَاطُ فِي الْبِنْيَةِ اللُّغَوِيَّةِ لِقَصِيدَةِ (نُزْهَةِ الْغُرَبَاءِ)، إِذْ بَنَى الْقَصِيدَةَ عَلَى شَكْلِ مَقَاطِعَ شِعْرِيَّةٍ وَلاَزِمَةٍ تَكْرَارِيَّةٍ فِي كُلِّ مَقْطَعٍ، وَتَكَوَّنَ كُلُّ مَقْطَعٍ مِنْ مِفْتَاحٍ يَفُكُّ بِهِ مَغَالِيقَ الْقَصِيدَةِ، وَلَكِنَّهَا بُنِيَتْ عَلَى لاَزِمَةٍ تَكْرَارِيَّةٍ لِلَفْظَةِ (الْغُرَبَاءِ) مَعَ تَغْيِيرٍ طَفِيفٍ. فَلَفْظَةُ الْغُرَبَاءِ مَشْحُونَةٌ بِطَاقَةٍ دِلاَلِيَّةٍ مُرْدَوَجَةٍ، الْغُرَبَاءُ نَحْنُ فِي هَذَا الزَّمْكَانِ، وَالْغُرَبَاءُ هُمْ فِي زَمْكَانِنَا، وَيُشِيرُ تَكْرَارُ لَفْظِ (الْغُرَبَاءِ) سَبْعَ مَرَّاتٍ وَمَا يُثِيرُهُ مِنْ تَأَزُّمٍ وَإِحْبَاطٍ فِي ذَاتِ الشَّاعِرِ، وَاقْتَرَنَ ذَلِكَ أَيْضًا بِالْغِنَاءِ وَالْعَزْفِ عَلَى (الْجِيتَارَةِ)[55] ، وَمَا لَهَا مِنْ دِلاَلاَتٍ فِي نَقْلِ الانْفِعَالاَتِ وَالْعَوَاطِفِ.

إِذَا كَانَ الإِنْسَانُ يَعِيشُ فِي مَكَانٍ وَيَسْكُنُ فِيهِ، فَإِنَّهُ كَذَلِكَ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُغَادِرَ مَحَطَّاتِ الْحَيَاةِ الزَّمَانِيَّةِ، فَدَرْوِيشُ يُحَاوِلُ إِعَادَةَ بِنَاءِ مَاضِيهِ وَفْقًا لِلتَّرَابُطَاتِ ذَاتِ الْمَغْزَى فِي مَجْرَى الشُّعُورِ وَفِي الذَّاكِرَةِ عَلَى أَنَّهَا أَهَمُّ مِفْتَاحٍ لِتَرْكِيبِ الشَّخْصِيَّةِ وَبِنَائِهَا وَلِهُوِيَّةِ الذَّاتِ الْمَفْقُودَةِ زَمَانِيًّا، " **فَالزَّمَنُ** يَتَلَوَّنُ بِلَوْنِ الْحَالَةِ الْوِجْدَانِيَّةِ الَّتِي تَسْتَوْلِي عَلَيْنَا ... وَإِنَّنَا نُفَكِّرُ بِالزَّمَنِ الَّذِي نَخْبُرُهُ بِصُورَةٍ حُضُورِيَّةٍ مُبَاشِرَةٍ "[56] فَالزَّمَنُ الْمَاضِي عِنْدَ دَرْوِيش يَتَجَلَّى فِي زَمَنِ الْوَصْلِ و الاتصال وَزَمَنِ الطُّفُولَةِ والهناء؛ فَضْلاً عَنْ زَمَنِ الْغُرْبَةِ وَالضَّيَاعِ:

يَاسَمِينُ عَلَى لَيْلِ تَمُّوزَ، أُغْنِيَّةٌ
لِغَرِيبَيْنِ يَلْتَقِيَانِ عَلَى شَارِعٍ
لاَ يُؤَدِّي إِلَى هَدَفٍ
مَنْ أَنَا بَعْدَ عَيْنَيْنِ لَوْزِيَّتَيْنِ؟ يَقُولُ الْغَرِيبْ

مَنْ أَنَا بَعْدَ مَنْفَاكَ فِيَّ ؟ تَقُولُ الْغَرِيبَةْ . [57]

هُنَا يُظْهِرُ دَرْوِيش عَلاَقَتَهُ مَعَ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الَّذِي فَقَدَهُ، وَأَصْبَحَ غَرِيبًا عَنْهُ فَهُوَ إِحْسَاسٌ حَزِينٌ وَجَارِفٌ بِفِقْدَانِهِمَا، وَأَشْبَهُ بِاللَّحْنِ الْجَنَائِزِيِّ اسْتِعْدَادًا لِلرَّحِيلِ الدَّائِمِ عَنْهُ، بَعْدَمَا حَاوَلَ عَبَثًا أَنْ يَتَأَقْلَمَ مَعَهُ (مَنْ أَنَا)، وَكَأَنَّ الْمَكَانَ وَالزَّمَانَ أَصْبَحَا أُغْنِيَةً، فِي شَارِعٍ لاَ يُؤَدِّي إِلَى هَدَفٍ.

وَتَتَجَلَّى جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ الزَّمْكَانِيِّ عِنْدَ دَرْوِيش فِي قَصِيدَتِهِ (أَرَى شَبَحِي قَادِمًا مِنْ بَعِيد) فِي التَّدَاعِي الْحُرِّ لِلأَمْكِنَةِ وَ الأَزْمِنَةِ الَّتِي مَرَّتْ عَلَيْهِ (فَرْدًا وَ جَمَاعَةً)، هُوَ يَرْثِي الْمَاضِي بِكُلِّ مَا يَحْمِلُ مِنْ مَضَامِينَ ، وَ تَبْلُغُ ذُرْوَةُ هَذَا التَّجَلِّي فِي الْفَاعِلِيَّةِ النَّصِّيَّةِ الَّتِي يَتْرُكُهَا التَّكْرَارُ اللُّغَوِيُّ لِلْفِعْلِ (أَطَلَّ)_تَكَرَّرَتْ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً _وَمُقْتَرِنًا بِمَجْمُوعَةِ الدّوالِ الأُخْرَى :

أُطِلُّ ، كَشُرْفَةِ بَيْتٍ ، عَلَى مَا أُرِيدْ...

أُطِلُّ عَلَى نَوْرَسٍ ، وَعَلَى شَاحِنَاتٍ وَ جُنُودْ

تَغَيَّرَ أَشْجَارِ هَذَا الْمَكَانِ

أُطِلُّ عَلَى كَلْبِ جَارِي الْمُهَاجِرِ

مِنْ كَنَدَا ، مُنْذُ عَامٍ وَ نِصْف ...[58]

فقد سَعَى الشَّاعِرُ إِلَى خَلْقِ تَوَازٍ بَيْنَ الْحَاضِرِ (أُطِلُّ، وَالشَّاحِنَات، وَ كَنَدَا) وَالْمَاضِي (الْفُرْس، وَالرُّوم، وَطَاغُور، وَإِسْخِيلِيُوس، وَالسُّومَرِيِّين، وَأَنْطُونِيُو، وَالْهُدْهُد، وَأَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي ...)وَ تَكْشِفُ هَذِهِ الدَّوال عَنْ حَالَةِ الصِّرَاعِ النَّفْسِيِّ الَّتِي يَعِيشُهَا الشَّاعِرُ فِي ظِلِّ فُقْدَانِ زَمْكَانِهِ، وَمِمَّا يَزِيدُ الصُّورَةَ مَأْسَاوِيَةً وَسُخْرِيَةً هُوَ هَذَا الاسْتِحْضَارُ لِصُورَةِ (الْكَلْب). فَضْلاً عَمَّا تُثِيرُهُ كَلِمَةُ(شَبَحِي) مِنْ دَلاَلَةِ الْوَهْمِ، وَكَأَنَّ اسْتِحَالَةَ تُحَقِّقُ الْحُلُمَ بِالْعَوْدَةِ، أَوِ الْيَأْسِ أَوِ الإِحْبَاطِ، أَوِ النُّفُورِ، دَفَعَهُ إِلَى تَحْقِيقِ ذَلِكَ فِي حُلُمِ الْيَقَظَةِ فَقَطْ، وَهُنَا تَكْمُنُ بَرَاعَةُ دَرْوِيش فِي الْجَمْعِ بَيْنَ كُلِّ عَنَاصِرِ الطَّبِيعَةِ (الإِنْسَان، وَالْحَيَوَان، وَالنَّبَات، وَالْجَمَاد) وَجَعْلِهَا عَنَاصِرَ فَاعِلَةً فِي تَحْرِيكِ النَّصِّ عَلَى حَدِّ قَوْلِ كريستيفا: "إِنَّ النَّصَّ لَوْحَةٌ فُسَيْفَسَائِيَّةٌ تُعِيدُ تَحْرِيكَ الْعَنَاصِرِ الطَّبِيعِيَّةِ إِلَى عَنَاصِرَ فَاعِلَةٍ دَاخِلَ النَّسِيجِ النَّصِّيِّ "[59]، وَكَذَلِكَ يَذْهَبُ تزفيتان تودوروف إِلَى الْقَوْلِ: إِنَّ الأَجْزَاءَ الْمُكَوِّنَةَ لِلنَّصِّ الأَدَبِيِّ لاَ تَقُومُ عَلَى عَلاَقَاتٍ اعْتِبَاطِيَّةٍ، وَإِنَّمَا عَلَى عَلاَقَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ، وَأَنَّ الرَّبْطَ الْمُحْكَمَ بَيْنَ أَجْزَاءِ النَّصِّ يَمْنَحُهُ صِفَةَ الْخُصُوصِيَّةِ الأَدَبِيَّةِ[60]. وَتَتَجَلَّى قِمَّةُ الانْهِيَارِ النَّفْسِيِّ فِي الْفُقْدَانِ الْمُتَكَامِلِ لِلأَزْمِنَةِ وَ الأَمْكِنَةِ، كَمَا فِي قَصِيدَتِهِ (لَيْلَةُ الْبُوم):

هَا هُنَا حَاضِرٌ لاَ يُلاَمِسُهُ الأَمْسُ/...هَاهُنَا حَاضِرٌ لاَ زَمَانَ لَهُ /...

هَا هُنَا حَاضِرٌ لاَ مَكَانَ لَهُ /...هَا هُنَا حَاضِرٌ/ عَابِر

هَا هُنَا عَلَّقَ الْغُرَبَاءُ بَنَادِقَهُمْ فَوْقَ

أَغْصَانِ زَيْتُونَةٍ ... [61]

إِنَّ النَّصَّ الشِّعْرِيَّ الْجَيِّدَ يَطْرَحُ نَفْسَهُ دَائِمًا كَإِشْكَالِيَّةٍ نَقْدِيَّةٍ، تَدْفَعُنَا إِلَى قِرَاءَتِهِ ، فَكُلُّ قِرَاءَةٍ تَطْرَحُ تَعْدِيلاً أَوْ إِضَافَةً لِلدَّلاَلَةِ النَّاتِجَةِ عَنِ الْقِرَاءَةِ السَّابِقَةِ ، فَدَرْوِيشُ قَدْ تَلاَشَتْ أَمَامَهُ مَلاَمِحُ الزَّمْكَانِ (لاَ زَمَانَ لَه / لاَ مَكَانَ لَه)، لَكِنَّ الْحَاضِرَ عَابِرٌ، أَيْ أَنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَفْقِدِ الأَمَلَ لِكَوْنِهِ مُمْسِكاً بِلَحْظَتِهِ الْحَاضِرَةِ (حَاضِر عَابِر)؛ لأَنَّ " حَقِيقَةَ الزَّمَنِ تَكْمُنُ فِي اللَّحْظَةِ أَي أَنَّهُ وَاقِعٌ مُعَلَّقٌ بَيْنَ عَدَمَيْنِ "[62]، فَتَجَلَّتْ جَدَلِيَّةُ الأَلِيفِ وَ الْمُعَادِي فِي الْعِبَارَتَيْنِ (حَاضِر عَابِر/ وَ عَلَّقَ الْغُرَبَاءُ بَنَادِقَهُمْ فَوْقَ أَغْصَانِ زَيْتُونَةٍ) ، وَ هِي صُورَةٌ (فَجَايِعِيَّةٌ)– إِنْ جَازَ لِي التَّعْبِيرُ – مَأْسَوِيَّةٌ وَ مُؤْلِمَةٌ أَنْ يُعَلِّقَ الْغُرَبَاءُ بَنَادِقَهُمْ عَلَى الرَّمْزِ الْفِلَسْطِينِيِّ (الزَّيْتُون)، فَاسْتَرَاحُوا ، لَكِنَّ الشَّاعِرَ لاَ يَفْقِدُ الأَمَلَ فِي التَّمَنِّي بِحَاضِرٍ آخَرَ :

لَوْ كَانَ لِي حَاضِرٌ آخَرُ /لاَمْتَلَكْتُ مَفَاتِيحَ أَمْسِي
وَلَوْ كَانَ أَمْسِي مَعِي / لاَمْتَلَكْتُ غَدِي كُلَّه...[63]

لَقَدْ قَتَلَ هَذَا الْعَصْرُ كُلَّ أَحْلاَمِ الشَّاعِرِ وَ تَطَلُّعَاتِهِ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ مَاضٍ أَوْ حَاضِرٌ ، حَتَّى فَقَدَ مَعَهُ الْمُسْتَقْبَلَ (الْمُعَلَّق) ، وَفَقَدَ مَعَهُ الأَمَلَ (لَمْ يَعُدْ غَدُنَا لَنَا)[64]، فَعَزَفَ لَحْنَ الْخُرُوجِ مِنَ الزَّمَانِ وَ الْمَكَانِ عَلَى جِيتَارَتِهِ وَ عَلَى نَايِهِ...[65] .

سِيمْيَائِيَّةُ الزَّمْكَانِ التَّارِيخِيِّ:

لاَ يَتَعَامَلُ دَرْوِيشُ مَعَ التَّارِيخِ مِنْ مُنْطَلَقِ كَوْنِهِ حَقَائِقَ مُجَرَّدَةً، كَمَا يَتَعَامَلُ مَعَهَا الْمُؤَرِّخُ، وَإِنَّمَا ــ بِوَصْفِهِ شَاعِرًا ــ يُضْفِي عَلَيْهَا مِنْ ذَاتِهِ وَوَاقِعِهِ، وَفْقًا لِقَنَاعَتِهِ بِمَا تَكْتَنِفُهُ هَذِهِ الْمَادَّةُ التَّارِيخِيَّةُ مِنْ قِيمَةٍ مَعْنَوِيَّةٍ وَدِلاَلَةٍ إِيحَائِيَّةٍ، يُرِيدُ إِيصَالَهَا إِلَى ذِهْنِ الْمُتَلَقِّي، مُتَجَاوِزًا حَقِيقَتَهَا التَّارِيخِيَّةَ إِلَى مَنْحِهَا بُعْدًا عَامًا، وَمَانِحًا إِيَّاهَا قُدْرَةَ التَّوَاصُلِ الْحَيِّ مَعَ الْعَصْرِ الرَّاهِنِ، وَلَعَلَّ تِقْنِيَّةَ التَّنَاصِ بِأَنْوَاعِهِ تَشْفَعُ لَهُ فِي هَذَا التَّوْظِيفِ وَالاسْتِدْعَاءِ التَّارِيخِيِّ.

إِنَّ أَحْدَاثَ التَّارِيخِ الإِنْسَانِيِّ تُشَكِّلُ أَرْضًا خِصْبَةً لِلشُّعَرَاءِ، لِلْخَلْقِ وَالإِبْدَاعِ،إِذْ إِنَّ اسْتِدْعَاءَ الأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ تَحْضُرُ بِوَصْفِهَا عَلاَمَاتٍ زَمْكَانِيَّةً فَاعِلَةً فِي التَّارِيخِ، يُضْفِي عَلَيْهَا الشَّاعِرُ مِنْ ذَاتِهِ وَوَاقِعِهِ بُعْدًا دِلاَلِيًّا، فَيَتَّخِذُ الْمَكَانُ شَخْصِيَّةً زَمَانِيَّةً، وَهَذَا النَّظَرُ الزَّمَانِيُّ إِلَى الْمَكَانِ مُتَّصِلٌ بِإِحْسَاسٍ ضِمْنِيٍّ بِالْمَكَانِ الْهَارِبِ الَّذِي يَفْلِتُ كَمَا يَفْلِتُ الزَّمَنُ[66]. عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّ كُلاًّ مِنَ (الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ) لاَ يَنْفَصِلاَنِ، فَالْعَلاَقَةُ بَيْنَهُمَا " عَلاَقَةٌ وُجُودِيَّةٌ فَلاَ زَمَانَ بِدُونِ مَكَانٍ، وَلاَ حَرَكَةَ لِلْمَكَانِ دُونَ زَمَانٍ "[67] لَكِنَّ رُؤْيَةَ الشَّاعِرِ الْخَلاَّقَةَ هِيَ الَّتِي تَمْنَحُهُ الْقِيمَةَ الْفَنِّيَّةَ وَالدِّلاَلِيَّةَ فِي الْبِنَاءِ اللُّغَوِيِّ؛ إِذْ يَرْتَبِطُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِالْحَالَةِ الشُّعُورِيَّةِ لِلْمُبْدِعِ اتِّجَاهَهُمَا. فَدَرْوِيشُ حَاوَلَ الْمَزْجَ بَيْنَ أَبْعَادِ الزَّمْكَانِ، إِنْ سَلْبًا أَوْ إِيجَابًا، وَأَطْلَقَ لِخَيَالِهِ الْعَنَانَ فِي الْكَشْفِ عَنْ صَدَى الأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ، عَبْرَ

جَدَلِيَّةِ الزَّمْكَانِ التَّارِيخِيِّ، فَوَظَّفَهُ بِشَخْصِيَّاتِهِ وَأَحْدَاثِهِ وَأَزْمِنَتِـــهِ وَأَمْكِنَتِـــهِ،عَبْرَ تَفْتِيـــتِ الزَّمْكَـــانِ الوَاقِعِيِّ وَامْتِصَاصِهِ وَإِنْتَاجِهِ بِصُورَةٍ مُغَايِرَةٍ حَتَّى تَتَحَقَّقُ الْوَظِيفَةُ الشِّعْرِيَّةُ الْجَمَالِيَّةُ لَهُمَا.

يُعَدُّ دَرْوِيشُ مِنْ أَكْثَرِ شُعَرَاءِ فِلَسْطِينَ اِحْتِفَاءً بِالتَّارِيخِ، وَلاَ سِيَّمَا الْعَرَبِـــيُّ وَالإِسْـــلاَمِيُّ، إِذْ وَجَدَ فِيهِ مِرْآةً تَعْكِسُ وَاقِعَهُ، وَتَحْدِيدًا الأَنْدَلُسَ بِوَصْفِهَا الْمُعَادِلَ الْمَوْضُوعِيَّ لأَنْدَلُسِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ:

جِيتَارَتَانِ
تَتَبَادَلاَنِ مُوَشَّحًا
وَتُقَطِّعَانْ
بِحَرِيرِ يَأْسِهِمَا
رُخَامَ غِيَابِنَا
عَنْ بَابِنَا
وتُرَقِّصَانِ السِّنْدِيَانِ[68]

يَعْزِفُ دَرْوِيشُ عَلَى سِمْفُونِيَّةِ الْمَاضِي الْبَعِيدِ الَّذِي فَقَدْنَاهُ، فَالأَنْدَلُسُ الَّتِي شَكَّلَتْ فِي شِـــعْرِ دَرْوِيش مُعَادِلاً مَوْضُوعِيًّا لأَنْدَلُسِهِ، قَدْ حَضَرَتْ بِأَبْعَادِهَا النَّفْسِيَّةِ وَالدِّلاَلِيَّةِ، فَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنَ الأَمَاكِنِ الْمَفْقُودَةِ الَّتِي ضَاعَتْ، عَبْرَ التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ وَالإِسْلاَمِيِّ، فَقَدْ مَزَّقَتْ هَذِهِ الْمَدِينَـــةُ قَلْـــبَ الشَّـــاعِرِ فَبَكَاهَا، فَالْبُكَاءُ عَلَى هَذَا الْمَكَانِ التَّارِيخِيِّ الْمَفْقُودِ أَوِ الْمُضَيَّعِ، تَمَثَّلَ فِي الْعَزْفِ عَلَـــى الْجِيتَـــارَةِ / الْجِيتَارَتَيْنِ: الأُولَى: تَعْزِفُ لَحْنَ الدُّخُولِ، دُخُولِ الأَعْدَاءِ عَلَى أَنْدَلُسِهِ، وَالثَّانِيَةُ: تَعْزِفُ لَحْنَ خُرُوجِ الْعَرَبِيِّ مِنَ الزَّمْكَانِ التَّارِيخِيِّ الأَنْدَلُسِيِّ، كَمَا عَبَّرَ دَرْوِيشُ عَنْ ذَلِكَ فِي دِيوَانِهِ (أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًـــا) حِينَمَا رَثَى أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الصَّغِيرَ آخِرَ مُلُوكِ الأَنْدَلُسِ[69] وَكَأَنَّ الْبُكَاءَ لاَ يَتَوَقَّفُ:

الْمَاءُ يَبْكِي، وَالْحَصَى، وَالزَّعْفَرَانْ
الرِّيحُ تَبْكِي:
لَمْ يَعُدْ غَدُنَا لَنَا..[70]

وَكَأَنَّ مَنْ فَقَدَ الْمَكَانَ الْمَاضِي، فَقَدَ الزَّمَانَ أَيْضًا، فَلَمْ يَعُدْ لَهُ حَاضِـــرٌ وَلاَ مُسْـــتَقْبَلٌ، هَـــذَا خُرُوجٌ مِنَ الزَّمَانِ وَالمَكَانِ، وَهَذِهِ صُورَةٌ مَأْسَوِيَّةٌ تَرَاجِيدِيَّة، حَاوَلَ دَرْوِيشُ لَفْتَ أَنْظَارِنَـــا إِلَيْهَـــا، وَمُذَكِّرًا بِأَبِي عَبْدِ اللهِ الصَّغِيرِ، حِينَمَا سَقَطَتْ الأَنْدَلُسُ وَبَكَى مِثْلَ النِّسَاءِ، فَبَكَـــتْ مَعَـــهُ الأَشْـــيَاءُ: (الْمَاءُ، وَالْحَصَى، وَالرِّيحُ ،و الرُّخَامُ ،وَالسِّنْدِيَانُ...) فَارْتَفَعَتْ وَتِيرَةُ هَذَا التَّجَلِّـــي بِالْبُكَـــاءِ حَتَّـــى وَصَلَتِ (الظِّلَّ)،وَبَكَتْ مَعَهُ الأَشْيَاءُ الْمُتَنَاهِيَةُ فِي الصِّغَرِ. فَالشَّاعِرُ خَلَقَ حَالَةً مِنَ التَّـــوَازِي بَـــيْنَ الأَنْدَلُسِيِّينَ عَبْرَ جَدَلِيَّةِ الزَّمْكَانِ التاريخيِّ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يَرْثِي الآخَـــرَ (تَتَبَـــادَلاَنِ مُوَشَّحًا)، فَقَدْ شَكَّلَ الزَّمَنُ الْحَاضِرُ حَالَةً ذِهْنِيَّةً اسْتَدْعَتْ حُضُورَ الزَّمَنِ الأَنْدَلُسِيِّ:

لاَ شَيْءَ يَأْخُذُ مِنْكِ أَنْدَلُسَ الزَّمَان
وَلاَ سَمَرْقَنْدَ الزَّمَان
إِلاَّ خُطَى النَّهَوَنْدِ
تِلْكَ غَزَالَةٌ سَبَقَتْ جَنَازَتَهَا
وَطَارَتْ فِي مَهَبِّ الأُقْحُوَان[71]

لَكِنَّ الْمُفَارَقَةَ الشِّعْرِيَّةَ لِلأَنْدَلُس، أَنَّهَا لَمْ تَحْضُرْ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الشِّعْرِيَّةِ كَمَا هِيَ فِي أَعْمَالِ دَرْوِيشَ السَّابِقَةِ (مَدِيح الظِّلِّ الْعَالِي، 1983، وَحِصَار لِمَدَائِحِ الْبَحْرِ 1984، وَأَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا 1992) فَالشَّاعِرُ قَدْ مَلَّ الْعَزْفَ وَيَئِسَ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالنِّدَاءِ وَالصُّرَاخِ عَلَى الزَّمْكَانِ الْمَفْقُودِ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى أَنْدَلُسِ الْمُمْكِنِ.

وَيُشَكِّلُ الْعُنْوَانُ[72] الْمِفْتَاحَ الأَوَّلَ لِلدُّخُولِ إِلَى عَالَمِ النَّصِّ بِدِلاَلاَتِهِ الثَّرة، لِسَبْرِ أَغْوَارِهِ وَفَكِّ مَغَالِيقِهِ، فَعُنْوَانُ قَصِيدَةِ (تَمَارِين أُولَى عَلَى جِيتَارَةٍ إِسْبَانِيَةٍ)يُوحِي بِهَذَا الْوَجِعِ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الشَّاعِرُ، فَقَدْ دَلَّ الْعُنْوَانُ عَلَى مِحْوَرِيَّةِ دِلاَلاَتِ النَّصِّ، فَالْعُنْوَانُ يُشَكِّلُ بَنِيْةً رَحْمِيَّةً تُوَلِّدُ مُعْظَمَ دِلاَلاَتِ النَّصِّ، وَقَدْ يَتَضَمَّنُ الْعُنْوَانُ الْعَلاَقَةَ الرَّئِيسَةَ فِي الْخِطَابِ، وَيَعْمَلُ عَلَى تَكْثِيفِ الدِّلاَلاَتِ[73] ، فَالشَّاعِرُ يَبْكِي عَلَى الْحَاضِرِ بِإِيقَاعِ الْمَاضِي وَانْكِسَارَاتِهِ وَهَزَائِمِهِ.

وَكَذلِكَ تُؤَكِّدُ اللاَّزِمَةُ التَّكْرَارِيَّةُ ثُنَائِيَّةَ الْبُكَاءِ، بِالْعَزْفِ عَلَى الْجِيتَارَةِ، فَالْقَصِيدَةُ قَدْ بُنِيَتْ عَلَى خَمْسَةِ مَقَاطِعَ[74] شَكَّلَتْ اللاَّزِمَةَ (الْجِيتَارَتَين) مِفْتَاحًا لِكُلِّ مَقْطَعٍ، وَكَأَنَّ هَذِهِ الْمَقَاطِعَ تُعَبِّرُ عَنْ أَزْمِنَةٍ شِعْرِيَّةٍ مُتَدَاخِلَةٍ، بِتَدَاخُلِ الْحَدَثِ الدرَامِيِّ وَسَيْرِهِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى قِمَّةِ التَّأَزُّمِ. فَتَكْرَارُ الْجِيتَارَتَيْنِ يُوحِي بِمَأْسَوِيَّةِ الْحَدَثِ الزَّمْكَانِيِّ الَّذِي يَتَنَاوَلُهُ الشَّاعِرُ، فَقَدْ تَكَرَّرَتْ (الْجِيتَارَتَان) خَمْسَ مَرَّاتٍ مُنْفَرِدَة، لَكِنَّ نِهَايَةَ الْقَصِيدَةَ قَدْ خُتِمَتْ بِتَكْرَارِ (الْجِيتَارَتَين) مَرَّتَيْنِ (جِيتَارَتَانِ/ جِيتَارَتَانِ)[75] ــ فَضْلاً عَنِ الْعُنْوَانِ ــ فَالشَّاعِرُ قَدْ أَنْهَى الْقَصِيدَةَ بِصُورَةٍ شِعْرِيَّةٍ مُغَايِرَةٍ حيث فَتَحَ أُفُقًا جَدِيدًا لِتَوَاصُلٍ دِلاَلِيٍّ حُرٍّ، نَصًّا مَفْتُوحًا، يَمْنَحُ النَّصَّ امْتِدَادًا لاَ حُدُودَ لَهُ.

إِنَّ التَّوْظِيفَ التَّارِيخِيَّ مَا هُوَ إِلاَّ تَعْمِيقٌ لِرُؤْيَةِ الشَّاعِرِ لِلْوَاقِعِ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ، وَبِوَصْفِ الأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ تَجَارِبَ جَاهِزَةً يُعِيدُ الشَّاعِرُ صِيَاغَتَهَا، فَمَهْمَا كَانَتِ الرُّمُوزُ التَّارِيخِيَّةُ الَّتِي يُوَظِّفُهَا الشَّاعِرُ لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُرْتَبِطَةً بِالْحَاضِرِ، وَبِالتَّجْرِبَةِ الْحَالِيَّةِ، وَبِالْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ، وَأَنْ تَكُونَ قُوَّتُهَا التَّعْبِيرِيَّةُ نَابِعَةً مِنْهَا، وَالْقِيمَةُ الرَّمْزِيَّةُ لِلرَّمْزِ التَّارِيخِيِّ كَامِنَةٌ فِي لَحْظَةِ التَّجْرِبَةِ ذَاتِهَا[76] كَمَا فِي قَوْلِهِ:

الاثْنَينُ مُوَشَّح
أَمْرٌ بِاسْمِكِ، إِذْ أَخْلُو إِلَى نَفْسِي

كَمَا يَمُرُّ دِمَشْقِيٌّ بِأَنْدَلُس
هُنَا أَضَاءَ لَكَ اللَّيْمُونُ مِلْحَ دَمِي
وَهَاهُنَا، وَقَعَتْ رِيحٌ عِنِ الْفَرَس[77]

إِنَّ قُوَّةَ الرَّمْزِ التَّارِيخِيِّ قَدْ حَرَّكَت وِجدَانَ الشَّاعِرِ، بَعْدَمَا شَعَرَ بِالْيَأْسِ وَالإِحْبَاطِ وَالتَّـذَمُّرِ مِنْ وَاقِعِهِ، وَهُنَا تَكْمُنُ الْمُفَارَقَةُ الشِّعْرِيَّةُ بَيْنَ أَعْمَالِهِ الشِّعرِيَّةِ قَبْلَ عام1993م وَبَعْدَهَا. فَقَـدْ كَـانَ الشَّاعِرُ مُفْعَمًا بِالْحَيَوِيَّةِ وَالنَّشَاطِ الثَّوْرِيِّ الإِنْسَانِيِّ، مُقَاوِمًا بِالْكَلِمَاتِ، فَأَصْبَحَ حِينَمَا يَمُـرُّ بِاسْـمِهَا (زَمْكَانِيًّا) يَمُرُّ بِالْمَاضِي، فَإِذَا هُوَ بِالأَنْدَلُس وَهِيَ مَاثِلَةٌ بِأَبْعَادِهَا (الْمُوَشَّحِ وَعَبْدِ الـرَّحْمَنِ الـدَّاخِل) فَاتِحًا، وَيَخْرُجُ مِنْهَا الْخَلَفُ مَهْزُومًا . وَلَعَلَّ تَكْرَارَ الْفِعْلِ (أَمُرُّ، يَمُرُّ) يُوحِي بِزَوَالِ الْحَدَثِ الْمَاضِي وَلَنْ يَعُودُ، لَكِنَّ الْحَاضِرَ لاَ يَزَالُ مَاثِلاً أَمَامَ نَاظِرَيْهِ (قَدْ يَعُودُ)، فَكُلَّمَا اسْتَدْعَتِ الصُّورَةُ حُضُـورَ الْمَاضِي حَرَّكَتْ فِيهِ مَشَاعِرَ الْحَاضِرِ (أَمُرُّ بِاسْمِكَ) فَقَطْ خَيَالِيًّا لاَ وَاقِعِيًّا، فَلَـمْ يَجِـدْ إِلاَّ الْمُوَشَّـحَ (رَمْزًا لِلْغِنَاءِ) لِيُؤْنِسَ حَيَاتَهُ فِي ظِلِّ زَمْكَانٍ حَاضِرٍ مَفْقُودٍ قَدْ يَعُودُ، هَذَا عَلَى صَعِيدِ الْبِنْيَةِ الْمَكَانِيَّةِ، أَمَّا عَلَى صَعِيدِ الْبِنْيَةِ الزَّمَانِيَّةِ فَقَدْ تَجَلَّتْ أَبْعَادُ الزَّمَنِ بِبُعْدَيْهِ: الْفِيزِيَقِيِّ وَالنَّفْسِيِّ، عَلَـى اعْتِبَـارِ أَنَّ الزَّمَنَ فِي الأَدَبِ هُوَ " الزَّمَنُ الإِنْسَانِيُّ أَنَنَا نُفَكِّرُ بِالزَّمَنِ الَّذِي نَخْبَرُهُ بِصُورَةٍ حُضُـورِيَّةٍ مُبَاشَـرَةٍ "[78] ، فالبعد الأَوَّلُ ــ الْفِيزِيقِيّ ــ تَمَثَّلَ فِي الأَيَّامِ (الثُّلاَثَاءِ، وَالأَرْبِعَـاءِ، وَالْخَمِـيس، وَالْجُمُعَـةِ، وَالسَّبْتِ، وَالأَحَدِ، وَالإِثْنِينِ)[79] وَهَذِهِ الأَيَّامُ شَكَّلَتْ مَفَاتِيحَ الْمَقَاطِعِ الشِّعْرِيَّةِ لِقَصِيدَةِ (أَيَّـامِ الْحُـبِّ السَّبْعَةِ). وَالْبُعْدُ الثَّانِي:النفسي تَمَثَّلَ فِي التَّذَكُّرِ وَالاسْتِرْجَاعِ لِلْحَدَثِ التَّارِيخِيِّ وَالأُسْطُورِيِّ (الثَّلاَثَاء عَنْقَاء، وَدِمَشْقِيٌّ بِأَنْدَلُس)[80].

فَالْجَدَلِيَّاتُ الثَّلاَثُ (الْمَاضِي وَالْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ) قَدِ الْتَقَتْ فِي بَوْتَقَةٍ وَاحِدَةٍ، مُشَـكِّلَةً عَـالَمَ الشَّاعِرِ الشِّعْرِيَّ الَّذِي فِيهِ الزَّمْكَانُ الْمَفْقُودُ.

إِنَّ تَوْظِيفَ الشَّاعِرِ لِلتُّرَاثِ التَّارِيخِيِّ لَيْسَ لِمُجَرَّدِ حِلْيَةٍ جَمَالِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ تُضَافُ إِلَى الْعَمَلِ الإِبْدَاعِيِّ، بِقَدَرِ مَا هُوَ عَامِلٌ أَسَاسِيٌّ فِي تَكْوِينِ الْخِطَابِ الشِّعْرِيِّ، وَ مَا يَحْمِلُ مِنْ تَجَلِّيَاتٍ جَمَالِيَّةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ ، تُسَاعِدُ الإِنْسَانَ عَلَى اكْتِشَافِ ذَاتِهِ وَ تَعْمِيقِ تَجْرِبَتِهِ الْفَنِّيَّةِ ، وَ مَنْحِهَا بُعْـدًا شُـمُولِيًّا، وَ ضَـرُورَةَ مَوْضُوعِيَّةٍ ، تَسْتَطِيعُ النُّهُوض بِعِبْءِ الْهَوَاجِسِ الذَّاتِيَّةِ ، وَ الرُّؤَى وَ الأَفْكَارِ الْخَلاَّقَـةِ [81] عَلَـى اعْتِبَارِ أَنَّ الشِّعْرَ يَتَجَاوَزُ الْحُدُودَ الزَّمَانِيَّةَ وَ الْمَكَانِيَّةَ ، وَبِوَصْفِهِ لُغَةَ انْزِيَاحٍ عَـنْ قَوَاعِـدِ النِّظَـامِ اللُّغَوِيِّ لِيَخْلُقَ لَهُ فَضَاءً خَاصًّا يَقُومُ عَلَى الرَّمْزِيَّةِ وَ الإِيحاءِ مِنْ جَانِبٍ ، وَيَكْتَفِي بِاللَّمْحَةِ الدَّالَّةِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ؛ لِذَلِكَ فَإِنَّ أَحْدَاثَ التَّارِيخِ تَمْتَلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّجَدُّدِ الْمُسْتَمِرِّ بِوَصْفِهَا " نَسَق لاَ زَمَـانِيّ ، وَ هِيَ زَمَانِيَّةٌ فِي كَوْنِهَا حَاضِرَةً أَبَدًا كَتَذْكِيرٍ دَائِمٍ بِالْعودِ الأَبَدِيِّ لِلشَّيْءِ نَفْسِـهِ "[82]،وَأَنَّ حَالَـةَ الْقَلَقِ وَالتَّوَتُّرِ وَعَدَمِ الانْسِجَامِ مَعَ اللَّحْظَةِ الْحَاضِرَةِ دَفَعَتْ دَرْوِيشَ فِي قَصِيدَتِهِ (أَبد الصَّـبَّار)إِلَـى

سيرَةِ الزَّمْكَانِ الْفِلَسْطِينِيِّ _تَارِيخِيًّا_ فَوَجَدَ أَنَّ كُلَّ الَّذِينَ جَاؤُوا إِلَى وَطَنِهِ عَبْـرَ مَرَاحِـلِ الـزَّمَنِ الْمُخْتَلِفَةِ ، قَدْ رَحَلُوا وَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلاَّ الذِّكْرَى:

_ أَقَامَ جُنُودُ بُونَابرتَ تَلاًّ لِرَصْدِ
الظِّلَالِ عَلَى سُورِ عَكَّا الْقَدِيمِ/...
_ هُنَا صَلَبَ الإِنْجِلِيزُ
أَبَاكَ عَلَى شَوْكِ صَبَّارَةِ لَيْلَتَيْنِ /...
_ هُنَا وَقَعَ الإِنْكِشَارِيُّ
عَنْ بَغْلَةِ الْحَرْبِ ، فَاصْمُدْ مَعِي /...
_ وَ كَانَ جُنُودُ يَهُوشَعَ بْنِ نُونٍ يَبْنُونَ
قَلْعَتَهُمْ مِنْ حِجَارَةِ بَيْتِهِمَا/...
_ هُنَا مَرَّ سَيِّدُنَا ذَاتَ يَوْمٍ ، هُنَا
جَعَلَ الْمَاءَ خَمْرًا... (83)

يَرْسُمُ دَرْوِيشُ صُورَةً جَمَالِيَّةً لِلْعَلاَقَةِ الْجَدَلِيَّةِ الْقَائِمَةِ بَيْنَ الإِنْسَانِ وَ الأَرْضِ ، أَيْ عَلاَقَةَ التَّوَحُّدِ مَعَ الأَرْضِ ، عَبْرَ السَّرْدِ الْقَصَصِيِّ وَ الْحِوَارِيِّ بَيْنَ الابْنِ وَ الأَبِ مُرُورًا بِتَفَاصِيلِ الْمَكَانِ ، وَمُعْلِنًـا أَنَّ كُلَّ الْغُزَاةِ – لِفِلَسْطِينَ – رَحَلُوا (بونابرت ، و الإنجليز ، و الإنكشاري ...و غيرُهم) ، فَكَانَ الْخِطَابُ (الشَّرْطِيُّ) لِلابْنِ (الْتَصِقْ بِالتُّرَابِ لِتَنْجُوَ/ فَاصْمُدْ مَعِي لِنَعُودَ)، فَضْـلاً عَـنْ صُـورَةِ الْقَدَاسَةِ لِهَذَا الْمَكَانِ الْمُتَمَثِّلِ بِالْمَسِيحِ ـــــــ عَلَيهِ السَّلاَمُ ـــــــــ ، (هُنَا جَعَلَ الْمَاءَ خَمْـرًا)، فَبَرَزَتْ جَمَالِيَّاتُ الزَّمْكَانِ التَّارِيخِيِّ بِأَبْهَى صُوَرِهَا بِهَذَا التَّدَاخُلِ بَيْنَ أَبْعَادِ الزَّمَنِ الثَّلاَثَةِ: الْمَاضِـي _ بِالْغُزَاةِ، وَالْحَاضِرِ _ الْمُحْتَلِّ ، وَ الْمُسْتَقْبَلِ _ بِاسْتِشْرَافِ لَحْظَةِ الْعَوْدَةِ .

وَلَعَلَّ أَبْرَزَ التَّجَلِّيَاتِ الزَّمْكَانِيَّةِ التَّارِيخِيَّةِ الْحَاضِرَةِ الَّتِي وَظَّفَهَا دَرْوِيشُ تَكْمُنُ فِي الْمَزْجِ فِـي تَوْظِيفِ الزَّمَنِ الأُسْطُورِيِّ وَالْوَاقِعِيِّ لِشَهْرِ آذَار، لِمَا لَهُ مِنْ مَرْجِعِيَّاتٍ اِجْتِمَاعِيَّةٍ وَتَارِيخِيَّـةٍ فِـي الذَّاكِرَةِ الْفِلَسْطِينِيَّةِ؛لأنه هُوَ شَهْرُ الْخِصْبِ وَالنَّمَاءِ فِي الْمَرْجِعِيَّاتِ الأُسْطُورِيَّةِ وَهُـوَ شَـهْرُ الـدَّمِ وَالثَّوْرَةِ وَالانْتِفَاضَةِ فِي تَارِيخِنَا الْفِلَسْطِينِيِّ:

...آذَارُ طِفْلُ
الشُّهُورِ الْمُدَلَّلُ ، آذَارُ يَنْدِفُ قُطْنًا عَلَى شَجَرِ
اللَّوْزِ، آذَارُ يُولِمُ خُبَيْزَةً لِفِنَاءِ الْكَنِيسَةِ.
آذَارُ أَرْضٌ لِلَيْلِ السُّنُونُو..(84)

يَظَلُّ (آذَارُ)[85] مِنَ الأَزْمِنَةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى الزَّمَنِ الْفِلَسْطِينِيِّ، وَتَعْنِيهِ بِالذَّاتِ هُوَ الشَّهْرُ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ (يَوْمُ الأَرْضِ) الْمُحْتَلَّةِ يَوْمَ تُعْلِنُ فِيهِ الأَرْضُ مِيلاَدَهَا، وَمِيلاَدَ فَجْرٍ جَدِيدٍ. لَكِنَّ آذَارَ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ الشِّعْرِيَّةِ لَمْ يَكُنْ بِآذَارِ دَرْوِيش فِي أَشْعَارِهِ السَّابِقَةِ ، إِنَّمَا حَضَرَ بِوَصْفِهِ عَلاَمَةً شِعْرِيَّةً دَالَّةً عَلَى زَمَنٍ فِلَسْطِينِيٍّ فَقَطْ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يَرْثِي آذَارَ بَعْدَمَا كَانَ يَمْنَحُ الأَرْضَ تَجَدُّدًا وَحَيَاةً، وَأَصْبَحَ (يُولِمُ خبيزَةً) وَمُشِيرًا إِلَى الرُّكُودِ الْعَرَبِيِّ، الْمُتَّصِفِ بِالسُّكُونِيَّةِ، فَدَرْوِيشُ يُحَاوِلُ اسْتِعَادَةَ فَضَاءٍ جُغْرَافِيٍّ تَلاَشَى، وَتَلاَشَتْ مَعَهُ الْحَرَكَةُ وَالْخِصْبُ:

صَدًى رَاجِعٌ، شَارِعٌ وَاسِعٌ فِي الصَّدَى
خُطًا تَتَبَادَلُ صَوْتَ السُّعَال، وَتَدْنُو
مِنَ الْبَاب، شَيْئًا فَشَيْئًا، وَتَنْأَى
عَنِ الْبَاب...[86]

أَصْبَحَ كُلُّ شَيْءٍ فِي نَظَرِ الشَّاعِرِ صَدًى، لاَ يَتَحَرَّكُ. (صَدًى رَاجِعٌ) رِثَاءٌ لِهَذَا الْوَاقِعِ الْعَرَبِيِّ الْمَأْسَاوِيِّ، وَإِحْبَاطٌ وَفُتُورٌ مِنْ أَمَلٍ مُشْرِقٍ مُتَوَقَّعٍ، (تَدْنُو، وَتَنْأَى) فَلَمْ يَجِدْ إِلاَّ أَبَا فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيَّ يُخَاطِبُهُ وَيُحَمِّلُهُ هُمُومَهُ، بَعْدَمَا تَشَابَهَتْ حَالَةُ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي الْبَحْثِ عَنِ الذَّاتِ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ وَصَلَ إِلَى الْفَصْلِ الأَخِيرِ مِنْ حَيَاتِهِ مُخَاطِبًا امْرَأَ الْقَيْسِ لِمَا فَعَلَهُ حِينَمَا اسْتَجَارَ بِقَيْصَرَ:

عِنْدَمَا أَوْصَلُونَا إِلَى الْفَصْلِ الأَخِير
الْتَفَتْنَا إِلَى الْخَلْفِ...[87]

وَكَأَنَّ نِهَايَةَ الْمَطَافِ وَالدَّرْبِ الطَّوِيلِ مِنَ الْمُقَاوَمَةِ قَدِ انْتَهَى إِلَى أَوَّلِ الدَّرْبِ (أَوْصَلُونَا) لِلاسْتِعَانَةِ بِالآخَرِ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ خَلِيلِ الشَّيْخِ: " لَقَدْ شَكَّلَ ذَهَابُ امْرِئِ الْقَيْسِ إِلَى الْقَيْصَرِ لاسْتِعَادَةِ مُلْكِ أَبِيهِ، رَمْزًا لِلْحَالَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، الَّتِي تَسْتَعِينُ بِالآخَرِ الْغَرْبِيِّ وَتَرْتَمِي بَيْنَ يَدَيْهِ لِتَحْقِيقِ أَحْلاَمِهَا أَوْ لاسْتِعَادَةِ مُلْكِهَا "[88] بِإِسْقَاطِ التَّجْرِبَةِ الْمَاضِيَةِ عَلَى الْحَاضِرِ وَمَا شَكَّلَهُ الْحَاضِرُ مِنَ الْهَزَائِمِ وَالانْكِسَارَاتِ، فَضْلاً عَنْ فُقْدَانِ الْمَكَانِ. فَوَجَدَ دَرْوِيشُ (امْرَأَ الْقَيْسِ) مَاثِلاً أَمَامَهُ، فَكَانَ خِلاَفُهُ مَعَهُ خِلاَفًا فِكْرِيًّا مَبْدَئِيًّا وَلَيْسَ لُغَوِيًّا[89].

الخاتمة:

فَلَقَدْ تَجَسَّدَتْ جَمَالِيَّاتُ التَّشْكِيلِ الزَّمْكَانِيِّ فِي دِيوَانِ" لِمَاذَا تَرَكْتَ الْحِصَانَ وَحِيدًا" عَبْرَ آلِيَّاتِ التَّوْظِيفِ الشِّعْرِيِّ لَهُمَا، وَقَدْ خَلُصَ الْبَحْثُ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الاسْتِنْتَاجَاتِ، وَهِيَ:

1 – أَنَّ جَدَلِيَّةَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ مِنَ الْجَدَلِيَّاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ الَّتِي عُنِيَ الشِّعْرُ الْعَرَبِيُّ الْحَدِيثُ بِهَا، وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ نَفْصِلَ أَحَدَهُمَا عَنِ الآخَرِ فِي أَيِّ دِرَاسَةٍ؛ لِذَلِكَ تَكْمُنُ الْخَصَائِصُ الْجَمَالِيَّةُ لَهُمَا فِي التَّشْكِيلِ الشِّعْرِيِّ عَلَى وَفْقَ رُؤْيَةِ الشَّاعِرِ لَهُمَا وَتَعَامُلِهِ مَعَهُمَا.

2-أَنَّ التَّشْكِيلَ الشِّعْرِيَّ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ الدَّوَالَ الشِّعْرِيَّةَ دَلاَلاَتِهَا الْمُتَنَوِّعَةَ عَلَى وَفْقِ السِّيَاقِ التِّرْكِيبِيِّ، وَمِنْ خِلاَلِ جَمَالِيَّةِ الْوَصْفِ الزَّمْكَانِيِّ، وَمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَبْعَادٍ مِيتَافِيزِيقِيَّةٍ وَسِيكولوجيَّة، وَأَنَّ الْفَضَاءَ النَّصِّيَّ هُوَ الْمُحَدِّدُ لِنَوْعِيَّةِ الزَّمْكَانِ بِأُلْفَتِهِ أَوْ بِعَدَائِيَّتِهِ. فَالْقَصِيدَةُ(نِظَامٌ لُغَوِيٌّ) رِسَالَةٌ إِلَى مُتَلَقٍ مُكَوَّنَةٌ مِنْ شَفْرَاتٍ نَصِيَّةٍ، يَعْمَلُ الْمُتَلَقِّي عَلَى فَكِّ رُمُوزِهَا، عَلَى اعْتِبَارِ: أَنَّ اللُّغَةَ تَجْرِي مَجْرَى الْعَلاَمَاتِ وَالسِّمَاتِ كَمَا يَقُولُ الْجَرْجَانِيُّ.

3- كَانَ هَاجِسُ الْعَوْدَةِ بَادِيًا فِي شِعْرِ دَرْوِيش، فَشَكَّلَ الزَّمْكَانُ الطُّفُولِيُّ تَعْوِيضًا عَنْ فُقْدَانِ الزَّمْكَانِ فِي الْوَاقِعِ وَحَلَّ فِي الذِّكْرَيَاتِ بَعْدَمَا ازْدَادَتْ جَذْوَةُ الْمَكَانِ تَوَقُّدًا فِي الذَّاتِ.

4- أَنَّ جَدَلِيَّةَ الْحُضُورِ وَالْغِيَابِ بِالنِّسْبَةِ لِلزَّمْكَانِ، تَعْكِسُ جَدَلِيَّةَ الْوَاقِعِ الْمَوْضُوعِيِّ وَالْوَاقِعِ الْفَنِّيِّ وَالْعَلاَقَةَ الْقَائِمَةَ بَيْنَهُمَا حَسْبَ رُؤْيَةِ الشَّاعِرِ، فَتَجَلَّتْ هَذِهِ الرُّؤْيَةُ مِنْ خِلاَلِ صُوَرِ التَّدَاعِي الْحُرِّ لِلأَمْكِنَةِ وَالأَزْمِنَةِ الَّتِي غَابَتْ عَنْ نَاظِرَيِ الشَّاعِرِ(فَرْدًا وَ جَمَاعَةً).

5- يُعَدُّ اسْتِرْجَاعُ الْمَاضِي عَامِلاً مُسَاعِدًا عَلَى فَهْمِ الأَحْدَاثِ الْحَاضِرَةِ، فَمِنْ هَذَا الْجَانِبِ تَحْضُرُ الأَبْعَادُ الزَّمْكَانِيَّةُ"الْمَاضِي وَالْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ" فَيَعُودُ الشَّاعِرُ إِلَيْهَا عَبْرَ جَدَلِيَّةِ الإِسْقَاطِ الدَّلاَلِيِّ .

6 – لاَ يَحْضُرُ الزَّمْكَانُ التَّارِيخِيُّ لِمُجَرَّدِ زِينَةٍ فَنِّيَّةٍ بِقَدْرِ مَا يُشَكِّلُ بُعْدًا حَيًّا وَمُتَحَرِّكًا دَاخِلَ الذَّاتِ الإِنْسَانِيَّةِ، فَعِنْدَمَا تَحْضُرُ الأَنْدَلُسُ- في الشعر- ، بِوَصْفِهَا مِنْ أَكْثَرِ الأَمَاكِنِ التَّارِيخِيَّةِ حُضُورًا، تَحْضُرُ مُعَادِلاً مَوْضُوعِيًّا لِلْوَطَنِ الَّذِي فَقَدْنَاهُ، فَوَجَدَهُ دَرْوِيشُ_فَرْدًا وَ جَمَاعَةً- مَاثِلاً فِي رُؤْيَاهُ.

الهوامش

[1]- عبد الحافظ، صلاح، الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، ص265، ويوسف اليوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ص117، ومحمَّد عبد العزيز شحادة، الزَّمن في الشِّعر الجاهليِّ ص 23، 65، 78 .

[2]- عثمان، إعتدال، إضاءة النص، (5-14).

[3]- المصدر نفسه، ص7.

[4]-النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، ص (5 و7)، وحسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، (24 و25).

[5]- باشلار، جاستون، جماليات المكان، ترجمة، غالب هلسا، ص46.

[6]- لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ترجمة، سيزا قاسم، ص89، وينظر، إبراهيم جنداري، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، ص170.

[7] الألوسي، حسام ، الزمن في الفكر الديني و الفلسفي القديم ، عالم الفكر ، مجلد 8 ، عدد 2 ، 1977،ص 138

[8] الألوسي ، حسام ، المصدر نفسه ، ص 156

[9] الألوسي ، حسام ، الزمان في الفكر الديني و الفلسفي القديم ،ص 52 و 54

[10] باشلار ، جاستون ، جدلية الزمن ، ص 8 ،9،39،47، و ميخائيل باختين ، أشكال الزمان و المكان في الرواية ،ص 6 و 54 و 153

[11] ديفز ، المفهوم الحديث للمكان و الزمان ، ص 21 و 41.

[12] هانزميرهوف ،الزمن في الأدب ،ترجمة :أسعد رزوق، ص 7 .

[13] بدوي ، عبد الرحمن ، الزمان الوجودي ، ص 22، و جاستون باشلار ، حدس اللحظة ، ص 49.

[14] عبد العزيز ، سعد ، الزمن التراجيدي في الرواية العربية المعاصرة، 36.

[15] هانزميرهوف ، الزمن في الأدب ، 16 .

[16] عبد العزيز ، سعد ، الزمن التراجيدي في الرواية العربية المعاصرة،ص 35 و 36.

[17] باشلار ، جاستون ، جدلية الزمن ، ص 9 .

[18] إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، ص24.

[19] نقلاً عن، عثمان، إعتدال، إضاءة النص،: 115.

[20] باشلار، جاستون ، جماليَّات المكان ص 52 .

[21] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، 164 و 165.

[22] باشلار، جاستون، جماليات المكان، 42.

[23] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص165.

[24] باشلار، جاستون، جماليات المكان، 43.

[25] المصدر نفسه، ص44.

[26] درويش ، محمود ، لماذا تركت الحصان وحيدا، ص 167.

[27] المصدر نفسه، ص32.

[28] المصدر نفسه، ص33.

[29] المصدر نفسه، ص33 و 34.

[30] النابلسي، شاكر، جماليات المكان في الرواية العربية، ص 201.

[31] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص19.
[32] باشلار، جاستون، جماليات المكان، 45.
[33] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص 41 و42، وينظر قصيدة نزهة الغرباء، ص50.
[34] باشلار، جاستون ، جماليات المكان، ص45.
[35] ويليك، رينيه، نظرية الأدب، ترجمة، محيي الدين صبحي، ص288.
[36] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص83 .
[37] المصدر نفسه، ص78.
[38] الجرجاني ، عبد القاهر(ت471هـ)دلائل الإعجاز ، ص 539.
[39] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص25.
[40] المصدر نفسه، ص27.
[41] يرى يوري لوتمان أنَّ ثنائية الداخل والخارج من أهم الثنائيات التي تميز المكان، ينظر، مشكلة المكان الفني، ص 83 و 84، وترى إعتدال عثمان، أنّ الانقطاع الفعلي عن المكان ينشأ عنه قطبان: الأول قطب الداخل والثاني: قطب الخارج، وينشأ عن طريق الجدل بين هذين القطبين تشكل المكان الشعري بما يشتمل عليه من خصائص فيزيقية، وخصائص مجردة في آن واحد، ينظر، إضاءة النص، ص 13 و14.
[42] باشلار، جاستون، جماليات المكان، 52
[43] لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ص 88.
[44] الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص456.
[45] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص38.
[46] المصدر نفسه، ص41.
[47] لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ص 79.
[48] دور، اليزابيث، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة، محمد إبراهيم الشوش، ص89.
[49] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص50.
[50] المصدر نفسه، ينظر، قصيدة نزهة الغرباء، ص50، وقصيدة إلى آخري وإلى آخره، ص40، وقصيدة تعاليم حورية، ص77، وقصيدة قال المسافر للمسافر لن نعود كما، ص110.
[51] باشلار، جاستون، جماليات المكان، 37.

[52] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص53.

[53] عثمان، إعتدال، إضاءة النص، ص127.

[54] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص53.

[55] لقد توقف بسام قطوس في دراسته عند دلالة آلة الجيتارة في شعر محمود درويش في ديوانه (أحد عشركوكباً) وللمزيد ينظر، قطوس، بسام، الزمان والمكان في ديوان محمود درويش، (أحد عشر كوكباً)، ص68 و69 .

[56] هانزميرهوف، الزمن في الأدب، ترجمة، أسعد رزوق، ص10.

[57] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص130.

[58] المصدر نفسه، ص 11 و 12.

[59] كريستيفا ، جوليا ، علم النص ، ص 21.

[60] تودوروف ، تزفيتان ، نقد النقد ،ص 93 – 95.

[61] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص 28 – 31.

[62] باشلار، جاستون ، حدس اللحظة ، ص 6 و 19 .

[63] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص84 .

[64] المصدر نفسه، ص140 .

[65] المصدر نفسه، ص91 و 138 و 166.

[66] سعيد، خالدة، حركية الإبداع، ص30.

[67] المحادين، عبد الحميد، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، ص25.

[68] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص138.

[69] درويش، محمود، الديوان، المجلد الثاني، ديوان أحد عشر كوكباً، قصيدة أنا واحد من ملوك النهاية، يقول: (أنا واحد من ملوك النهاية.../ أقفز عن فرسي في الشتاء الأخير، أنا زفرة العربي الأخيرة) ص555، وقصيدة كن لجيتارتي وتراً أيها الماء، ص558، وقصيدة الكمنجات، ص 561.

[70] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص 139 و 140.

[71] المصدر نفسه، ص 141.

[72] العنوان: عبارة عن رسالة لغوية، وهذه الرسالة يتبادلها المرسل والمرسل إليه، ويساهم في التواصل المعرفي والجمالي، وتكون هذه الرسالة مسننة بشفرة لغوية، يفككها المتلقي ويؤولها

بلغته الواصفة أو الماورا لغوية، وله وظائف أهمها الانفعالية، والمرجعية، والانتباهية، والجمالية، والميتا لغوية، والتعينية، والتحريضية، والأيدلوجية، والتأثيرية، والتواصلية، ينظر، جميل حمداوي، السيميوطقيا والعنونة، ص110 و101.

[73] حمداوي، جميل، السيميوطيقا والعنونة، ص96.

[74] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ينظر النص الكامل لقصيدة تمارين أولى على جيتارة إسبانية، ص138.

[75] المصدر نفسه، ص141.

[76] إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية، ص 199 و200.

[77] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص148.

[78] هانز ميرهوف، الزمن في الأدب، ص10.

[79] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص142.

[80] المصدر نفسه، 142 و 148.

[81] أطيمش ، محسن ، دير الملاك ،ص 122.

[82] هانز ميرهوف، الزمن في الأدب، ص90 .

[83] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص32 – 35 ، وتلتقي هذه الصورة الشعرية مع قصيدة حجر كنعاني في البحر الميت من ديوان محمود درويش أحدعشر كوكبا ، الديوان ص 572.

[84] المصدر نفسه، ص20

[85] من المعروف أن شهر آذار في الأساطير، هو شهر من شهور عودة الخصب إلى الأرض، ويرتبط بشعائر كانت تجمع منطقة البحر الأبيض المتوسط كلها، حيث كانت تقام احتفالات سنوية لآلهة الخصب: أوزوريس، وأدونيس وتموز، وتميزت بطبيعتها الواحدة، واحتفائها، بتجدد النبات على الأرض في هذا الوقت من العام، ينظر النابلسي، شاكر، مجنون التراب، ص528، وينظر أحمد الزعبي، الشاعر الغاضب، ص134.

[86] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ص103.

[87] المصدر نفسه، ص156.

[88] الشيخ، خليل، السيرة في إطار الشعر، ص182.

[89] درويش، محمود، لماذا تركت الحصان وحيداً، ينظر قصيدة، خلاف غير لغوي مع امرئ القيس، ص155.

المصادر والمراجع:

1. إسماعيل، عز الدين، **التفسير النفسي للأدب**، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، دون تاريخ.
2. إسماعيل، عز الدين، **الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية**، دار العودة، بيروت، ط(3)، 1981م.
3. أطيمش ، محسن، **دير الملاك : دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي المعاصر** ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط (1) 1981م .
4. الألوسي ،حسام،**الزمن في الفكر الديني و الفلسفي القديم** ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، ط (1) 1981 م.
5. الألوسي ، حسام ، **الزمان في الفكر الديني و الفلسفي القديم** ، عالم الفكر، مجلد 8 ، العدد2 ، 1977م.
6. باختين ، ميخائيل ،**أشكال الزمان و المكان في الرواية** ، ترجمة : يوسف حلاق ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية السورية ، دمشق ،1990م.
7. باشلار، جاستون ، **جدلية الزمن** ،ترجمة : خليل أحمد خليل ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ط (2) 1988م .
8. باشلار، جاستون، **جماليات المكان**، ترجمة غالب هلسا، كتاب الأقلام (1)، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1980م.
9. باشلار، جاستون ، **حدس اللحظة** ، تعريب : رضا عزوز و عبدالعزيز زمزم ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، الدار التونسية للنشر ، 1986م.
10. بحراوي، حسن، **بنية الشكل الروائي**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط (1)، 1990م.
11. بدوي ، عبد الرحمن ، **الزمان الوجودي** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ،1945م
12. تودوروف ، تزفيتان ، **نقد النقد : رواية تعلم** ، ترجمة : سامي سويدان ، مراجعة : ليليان سويدان ، وزارة الثقافة و الإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،ط (2)،1986م.

13. الجرجاني، عبد القاهر، (ت 417هـ)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق، محمد رضوان الداية، وفائز الداية، مكتبة سعد الدين، دمشق، ط (2)، 1987م.
14. جنداري، إبراهيم، **الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط (1)، 2001م.
15. حمداوي، جميل، **السيميوطيقا والعنونة**، مجلة عالم الفكر، المجلد (25)، العدد (3)، 1997م.
16. درويش، محمود، **الديوان، المجلد (1+2)**، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ط (2)، 2000م.
17. درويش، محمود، **لماذا تركت الحصان وحيداً**، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ط(4)، 2009م.
18. دور، إليزبيث، **الشعر كيف نفهمه ونتذوقه**، ترجمة، محمد إبراهيم الشوش، منشورات مكتبة فمينة، بيروت ونيويورك، 1961م.
19. ديفيز، **المفهوم الحديث للمكان و الزمان** ،ترجمة: السيد عطا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1996م.
20. الزعبي، أحمد، **الشاعر الغاضب محمود درويش، دلالات اللغة وإشاراتها وإحالاتها**، إربد، الأردن، ط (1)، 1995م.
21. سعيد، خالدة، **حركية الإبداع، دراسات في الأدب العربي**، دار العودة، بيروت، ط (2)، 1982م.
22. شحادة، محمد عبدالعزيز، **الزمن في الشعر الجاهلي** ، (بدون مكان نشر)،1995م.
23. الشيخ، خليل، **السيرة في إطار الشعر قراءة في ديوان محمود درويش لماذا تركت الحصان وحيداً**، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد (16)، العدد (2)، 1998م.
24. عبد الحافظ، صلاح، **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي**، دار المعارف، مصر، دون تاريخ.
25. عبدالعزيز، سعد ، **الزمن التراجيدي في الرواية العربية المعاصرة**،المطبعة الفنية الحديثة ، القاهرة ،1970م.
26. عثمان، إعتدال، **إضاءة النص**، دار الحداثة، بيروت، ط(1)، 1988م.

27. قطوس، بسام، **الزمان والمكان في ديوان محمود درويش أحد عشر كوكباً**، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد (14)، العدد(1)، 1996م.
28. كريستيفا، جوليا ،**علم النص** ، ترجمة : فريد الزاهي ، مراجعة: عبد الجليل نـــاظم ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط(1) ، 1991م.
29. لوتمان، يوري، **مشكلة المكان الفني**، تقديم وترجمة، سيزا قاسم، مجلة ألـــف، القـــاهرة، العدد(6)، ربيع 1986م.
30. المحادين، عبد الحميد، **جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية**، المؤسســـة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط(1)، 1994م.
31. النابلسي، شاكر، **جماليات المكان في الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط(1)، 1994م.
32. النابلسي، شاكر، **مجنون التراب – دراسة في شعر محمود درويش وفكـــره**، المؤسســـة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط(1)، 1997م.
33. النصير، ياسين، **إشكالية المكان في النص الأدبي دراسات نقدية**، دار الشـــؤون الثقافيـــة العامة، بغداد، ط(1)، 1986م.
34. هانزميرهوف، **الزمن في الأدب**، ترجمة، أسعد رزوق، مراجعـــة، العوضـــي الوكيـــل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ومؤسسة فرانلكين للطباعة والنشر، القاهرة ونيويـــورك، 1972م.
35. ويليك، رينيه، وأوستن وارين، **نظرية الأدب**، ترجمة: محيي الدين صـــبحي، مراجعـــة: حسام الخطيب، مطبعة خالد الطرابيشي، دمشق، سوريا، 1972م.
36. اليوسف، يوسف، **مقالات في الشعر الجاهلي**، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر، ط(3)، 1983م.